الزعيم يحلق شعره

رواية

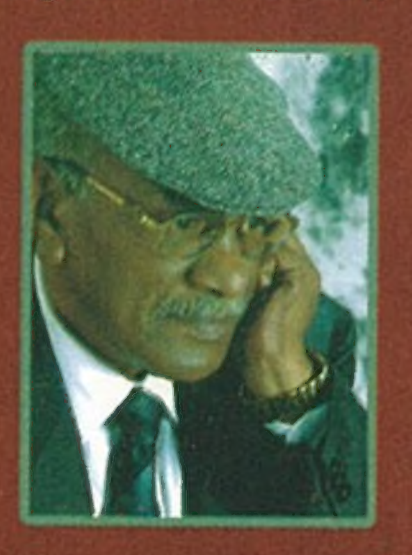
إدريس علي

الطبعة الثانية

وعد
للنشر والتوزيع

رواية

"الزعيم" يحلق شعره



الاسم : إدريس علي محمد حسن
اسم الشهرة : إدريس علي
تاريخ الميلاد : ١٩٤٠/١٠/٥
بلاد النوبة المصرية قرية " قرشه "

الدراسة والوظائف :

١- مدرسة البستان الإعدادية سنة ١٩٥٤ .
٢- معهد القاهرة الديني ١٩٥٤ - ١٩٥٧ " الأزهر " .
٣- تعثر في دراسته في المرحلتين
٤- تطوع في القوات المسلحة (قوات حرس الحدود) من ١٩٥٨ إلى عام ١٩٧١.
٥- خاض حربي اليمن وحرب ١٩٦٧.
٦- خرج من الخدمة لعدم اللياقة الطبية .
٧- مارس العديد من المهن البسيطة في مراحل متعددة من حياته (معمل أدوية / صبي كواء/ صبي بقال / أمن منشئات) .
٨- أستقر موظفاً في شركة المقالون العرب للاستثمار من ١٩٨١ وحتى ٢٠٠٠ (أمين مكتب وشركة) .

- كتابة البوح -

إدريس علي

رواية

الزعيم يحلق شعره

حكايات من مدينة الاختفاء المتكرر

الطبعة الثانية



2011

رواية: الزعيم يحلق شعره

المؤلف: إدريس علي

الطبعة الثانية : 2011

رقم الإيداع : 14508 / 2011

الترقيم الدولي: 8 - 23 - 5113 - 977 - 978

وعـد للنشر والتوزيع

3 محمد حلمي إبراهيم - متفرع من شارع شامبليون

وسط البلد - القاهرة.

تليفاكس: 02 25745871

0125281381 - 0109769749

www.darwaad.com

darwaad@hotmial.com

dar.waad@yahoo.com

الإشراف العام: الجميلي أحمد

الإخراج الفني: هبة يحيى



إهداء أول

أستاذي وأخي وصديقي عميد كتاب أفريقيا

الطيب صالح



إهداء ثان

إلى حفيدي الثاني والذي لم تتضح معالمه بعد لعل قدومك سيكون بشيرا يزول ظاهرة مدن القمع والاختفاء.. وسيكون حافزا لي على مواصلة الإبداع في مناخ من الحرية والعدالة..

فعجل يا ولدى بالوصول.. فنحن كلنا في انتظارك

إدريس علي



التزوير والعار



رفع الكفيل الليبي يده البدائية الطويلة إلى آخر المدى وبكل الغل والغيظ والإحباط هوى بكفه الخشنة على صدغ مبيض المحارة المحتال في صفقة دويت كالقنبلة وبصق على وجهه سابا:

- قواد ولد قحبة

ترنح المضروب استند بيده إلى الأرض مسح البصقة البلغمية من وجهه والدموع من عينيه وقال معاتبا بمذلة معينة:

- كده برضه يا حاج الله يسامحك.
- وأكثر من هيك(1).. توا تشوف (2) ايش(3) بيصير فيك!
- في عرضك.. أبوس رجلك.. كفاية كده.
- لا رجلي ولا ايدي.. ضيعتني.

تمنيت لو أن المبيض ليه بقية من شهامة أولاد البلد ورجولتهم أو ذرة من كرامة فكيف عن الاستجداء المذل ويرد الصفقة أو البصقة بمثلها أو يثور رفاقه الذين جلبهم معه. لكن المبيض مازال يواصل إهدار كرامته وكرامتنا.. تقدم من الكفيل وانحنى محاولا تقبيل حذائه. ركله الكفيل بقوة ورماه على بعد أمتار..

أقمته ودفعته على كتفه ناهرا:

- كفاية يا بنى آدم.. إيه.. ما عندكش نخوة؟؟
- واعمل ايه يعنى؟
- خليك راجل.
- انت عارف ممكن يعمل فيا إيه؟
- مش هيشنقك.. هيرجع مصر وإيه يعنى طظ في الفلوس.

---

(1) هيك : هكذا ، (2) توا : الآن ، (3) ايش : ماذا

- ودا شويه.
- خلاص وطي وخليه......
- طيب يا أستاذ.
- وانت خليت فيها عيب؟

التفت إلي الكفيل وقلت له معاتبا بما بيننا من مساحة ود ليس لها علاقة بهؤلاء العمال المزورين:

- مش معقول كده يا شيخ العرب؟.
- هادا (1) ما يخصك.
- إزاي يا حاج دول برضه مهما كان أولاد بلدي.
- أشبح (2) بنفسك. لقد وثقت بهم فخدعوني.

الموقف فعلاً كان مأساويا، فقد أسيء إلينا أبلغ إساءة لأن الكفيل جلب مجموعة من المهنيين اختارهم المبيض وضحك عليه وهم في الواقع في حكم العمال العاديين الذين لا سعر لهم هذه الأيام فعندما امتحنهم المقاول المصري الذي سيستلم الصفقة، اتضح أن المبيض مجرد عجان ومناول مونة والحداد المسلح.. حداد كريتال أبواب وشبابيك والسباك عامل تسليك بالوعات في مصلحة المجاري، والنجار المسلح.. خشاب مهمته مناولة الأخشاب للنجار. ومبلط القيشاني وهو أهم واحد في الصفقة كان يعمل في الأساس في مصنع بلاط خلف ماكينة ولا يجيد حتى لصق البلاط العادي. وعمال الخرسانة والفورمجية عمال عاديين ولا علاقة لهم بصب الخرسانة التي تحتاج لمهارات خاصة.

---

(1) هدا : هذا ، (2) أشبح : أنظر

اعترفوا جميعا للكفيل بأن مبيض المحارة المزعوم قد حصل من كل واحد على مائتي جنيه نظير شهادات الخبرة المزورة وإضافتها على جواز السفر وكانوا يعتقدون بأن الكفيل على علم بهذه الإجراءات وإنه يتقاسم المبلغ المدفوع مع المبيض الذي أوهمهم بذلك.

سألهم الكفيل وسط الأزمة وظروفهم الحرجة:

- تشهدوا معايا في مكتب العمل ضد زميلكم النصاب أم ترحلون معه الى مصر وعلى حسابكم؟

قالوا في نفس واحد:

- نشهد يا حاج!

خرج الكفيل ومعه الشهود الذين باعوا أنفسهم للشيطان مقابل وعد غير مؤكد بالبقاء والعمل.

سألني العجان مرعوبا بعد خروجهم:

- تفتكر هيعمل فيا إيه؟
- يا السجن يا الترحيل.
- يا لهوى.
- أنت السبب؟
- عملت إيه يعنى؟
- عمل اسود ومهبب.
- وحياتك يا أستاذ كله كده.. بقى بذمتك في سباك حقيقي بيسافر على ثمانين دينار.. دا مبلط القيشانى الأسطى يعنى.. بيعمل قديهم مرتين في اليوم وهو قاعد في مصر.
- وليه السفر بقى ؟

– ما كلهم بيشتغلوا بره من ورا الكفيل وبياخدوا مقاولات بآلاف الدنانير.. آدى الحكاية.

– لكن انت غشيت المقاول.

– كله بثمنه.

– دفعت له أيه؟

– كتير.

– زي إيه؟

– جوزته أختي زواج عرفي لمدة أسبوع بألفين جنيه بس.

– يعنى ضحيت بأختك علشان تسافر.

– زواج على سنة الله ورسوله.

– من أفتى بهذا تلاعب بالدين.

– وبعدين بقى؟

– وانتوا خليتو فيها بعدين.. جرستونا.

عاد الكفيل مع الشهود وجلس صامتا وعلامات السعادة بادية على وجهه في انتظار ما ستسفر عنه عملية تأديب العجان ولم تمضي سوى دقائق حتى طرق رجال حملة التأديب الباب بقوة واندفعوا منه إلى الحوش (1).. كانوا مجموعة من الشبان الأشداء بملابس مدنية.. حسبتهم من البلطجية والفتوات..

– وين (2) المصري هادا؟

ولما أشار لهم الكفيل ناحية العجان والذي كان منزويا في ركن باكيا وحين حاولوا الإمساك به جرى ناحية الكفيل وتشبث به:

---

(1) الحوش: المنزل (2) وين: أين

- أنا في عرضك يا حاج.. والله لأجوزك أختي التانية ببلاش.

أحسست بالغثيان والمهانة تمنيت لو تبتلعني الأرض..

انتزعه الشبان بالقوة وحملوه والعجان يصرخ:

- يا لهوى.. يا خرابي.. الحقوني يا ناس.

اقشعر بدني من هول الموقف إغرورقت عيناي بالدموع من عنف المشهد.. تماسكت بصعوبة وسألت الكفيل الذي بدا منتشيا:

- عملت في إية؟ ومين دول؟
- اللجان الثورية!
- لجان ثورية؟ ليه بتهمه إيه؟
- اسأل إخوانك الشهود.
- البلاغ كان إيه يا جماعة؟
- ما عرفناش.. "سألونا حصل الكلام دا يا شباب" قلنا حصل ووقعنا على المحضر وجينا.
- كلام إيه؟
- اللي قالوا الكفيل.
- وهو قال إيه؟
- كانوا بيتكلموا بالليبي.
- يعني انتو زي شاهد ما شفش حاجة على رأى "عادل إمام".
- دا اللي حصل.
- روحوا يا شيخ ضيعتوا زميلكم وكسفتونا.

وعلمت بعد ذلك أن الكفيل لم يذهب إلى قسم استراحة أو مكتب العمل.. إنما لجأ إلى السلاح الفتاك وقدم بلاغ إلى اللجان

الثورية بأن المصري سب ليبيا والزعيم وهو السلاح المدمر هذه الأيام.. فيمكنك أن تسب من تشاء وتنجو.. لكن لا نجاة لمن يسب الزعيم الأخ العقيد سيد هذه العزبة أو يعترض على قراراته أو حتى على زيه وشعره الطويل والمصير معلوم، الاختفاء.
قال الكفيل للمقاول المصري آمرا:

- شغل هادول (1) عندك.
- وماذا أفعل بهم؟
- أي حاجة وما بغيش (2) منك عمولة.

قال المقاول لمن تحولوا إلى عمالة عادية ليس لها حق الإقامة ولا تحويل المدخرات حسب القرارات الأخيرة والتي تمنع استخدام العمال العاديين من مصر والسماح فقط بدخول المهنيين والحرفيين والأطباء والمهندسين والمؤهلات العليا:

- اليومية اتنين جنيه في اليوم وما فيش تحويل فلوس ولا إقامة.
- ونشتغل ايه حضرتك؟
- تقعدوا تحت الطلب واليومية أيام الشغل بس.. تطلعوا رمل.. تشيلوا تراب.. تحفروا.. أي حاجة.. موافقين؟

سألني الكفيل بعد انصرافهم:

- عاجبك كده يا أستاذ؟
- انت الغلطان يا حاج.
- غلطان كيف يعنى؟
- كان المفروض أن تستعين بمكتب تسفير عمالة متخصص أو

---

(1) هادول: هؤلاء، (2) ما بيش: لا أريد

وزارة القوى العاملة أو حتى بمهندس لامتحانهم قبل السفر..

– طول عمري أجلب العمالة من السوق.. وهذه أول مرة أخدع فيها كنت شاورتني.

– حصل خير.

– تعيش وتاخد غيرها.

– توا أنا ارتحت.

– عملت إيه في العجان.

– عجنته ملعون الوالدين.

– أمهلني أسبوعا للبحث عن عمل حسب اتفاقه معي في القاهرة، أن يتكفل بعملية التأشيرة ويسهل دخولي ويطلق سراحي في طرابلس دون مقابل بواسطة محام صديق هو الذي ينهي له مشاكل في مسألة الزواج المتكرر.

فعندما ضاقت بي الحياة على سعتها في القاهرة وتحت إلحاح زوجتي بأن أجد حلا لهذه الأزمة الاقتصادية الخانقة قررت الخروج لدنيا الله الواسعة وتجربة حظي مثلما فعل غيري لأن بيتي كان خاويا من كل مظاهر الحياة الحديثة والتي باتت ضرورية، لا ثلاجة لا تلفاز لا مراوح ولا حتى بوتاجاز ولم نتجاوز عصر الوابور الجاز وكان المشهد الذي دفعني لسرعة التصرف أن زوجتي ضربت الطفلين لأنهما ذهبا إلى شقة الجيران لمشاهدة التلفاز.. وكان الطفلان يبكيان بحرقة طلبت أماني:

– هات لنا تلفزيون يا بابا .

- استعطفني أسامة
- وكمان ثلاجة يا بابا
تحدثني:
- شوف لك حل زي كل الناس.. " إيه مش راجل؟؟

والحل لم يكن متاحا في مصر على الإطلاق لأن كتابة القصص لا تدر دخلا ولا تطعم جائعا. فبحثت عن مخرج وفشلت.. لأن بضاعتي مجرد الكتابة. كائن معقد مكلكع.. ولا فائدة ترجى منه حشوت رأسي بعصير الكتب ووقفت عاريا أمام ضرورات الحياة ورغم أن الفنان يوسف السباعي حاو لمساعدتي كما فعل مع غيري لكن معاش من القوات المسلحة وقف حائلا بيني وبين الوظائف الحكومية أو المواقع الثقافية ولم أجد أمامي من سبيل سوى خوض مغامرة غير مأمونة العواقب وبالكاد استطعت تدبير أجرة التذكرة الطائرة وتركت خلفي أسرتي على فيض الكريم وهكذا سافرت وصورة المستقبل أمامي مبهمة رغم وجود عشرات التوصيات لكتاب وصحفيين كان من أهمها توصية من شخصية مرموقة بالحزب الناصري لوزير الإعلام وكذلك توصية مهمة من عضو فو حزب التجمع وهما الحزبان اللذان لهما قبول في بلد ثورة الفاتح.. سألت الكفيل وأنا أتأهب للخروج بحثا عن عمل مناسب:

- ماذا أفعل أن لن أوفق؟؟
- وقتها يحلها ربي.

ولا أدري لماذا دفعني شيطان العبث من سؤاله:

- كيف قابلت أسرة الفنجان مبلغا هزيلا في زواجه الأخير؟؟

رد ضاحكا:

- كانت مضروبة.
- كيف؟
- مش بتول (1) .
- مطلقة أو أرملة.
- لا هذا ولا ذاك.
- مش فاهم.
- خيرك(2) .إيه انت مش مصري ولا شو؟؟
- اسمع واقرأ عن بنات الحوامدية والزواج العرفي لمدة أسبوع من العرب.. وهذا حرام في ظني.
- حرام كيف وربي من قال: " وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيمانكم وأيديكم "
- انت شنو.. مش مسلم؟
- مسلم ولكن ما يحدث هو زنا في حماية الشرع؟؟
- استغفر ربك يا رجل ودب (3) لحالك.
- ألم تعجبك ولا واحدة من بنات مصر لكي تحتفظ بها.
- وأم الصغار؟
- تخاف منها لا تخشى الله؟
- يا أبي ربي غفور رحيم.
- وشديد العقاب أيضاً.
- فكنا (1) من وجع الرأس ورحمة والديك.

لم أشاهد في حياتي حشودا بهذه الكثافة مظاهرات في كل مكان.. صراخ، وعيد وكلها في الغالب موجهة ضد مصر وكان فنان

---

(1) بتول : عذراء ، (2) خيرك : ماذا بك

الكاريكاتير الزواوي قد نشر صورة سافرة لهذا الصخب المجنون وكتب تحتها (مسيرة تشجب وتؤيد المسيرة اللي فاتت) وعلى مدى ثلاثة أيام وفى هذا الجو المشحون حفيت قدماي في العثور على موطئ قدم. كل كروت التوصية أخفقت في تذليل العقبات أمامي ولم استطع مقابلة وزير الإعلام. وآخر من لجأت إليه هو المهندس عزيز المصري والذي كان يشرف علي قسم الأوفست بروز اليوسف ويعمل هنا في الصحافة وجدته مأزوماً وقرفاناً من وجوده هنا وعلى وشك التأهب للمغادرة بسبب سوء المعاملة وقال بعد اللقاء الحميم مستنكرا:

– إيه اللي جابك في الأيام المنيلة دي؟

التوقيت سيء للغاية كان في أعقاب أحداث مارس76 والذي قام فيه الزعيم بطرد مليون مصري انتقاماً من السادات الذي نعته بالولد المجنون وصوره رسام كاريكاتير شهير جالسا يتبرز كالأطفال فوق (قصرية) وتناولته معظم الصحف الحكومية بالتجريح بينما نعت الزعيم خصمه بالرئيس المدمن وجند له عصابات من المخربين فجروا عدة مواقع حساسة وكان الزعيم مرعوبا من كثافة المصريين في ليبيا وهو الذي فتح لهم الحدود بالبطاقة وبدون تأشيرة ثم ندم وقال في خطاب رسمي إن الجيش الثالث الميداني قد تسلل إلى ليبيا بالملابس المدنية وكأنهم حصان طروادة وقال أيضا كلما قبضنا على "خانب (1)" يا يكون مصري أو تونسي.. وأضاف عزيز المصري:

– أي مساعدة تحت أمرك.. لكن ليس في مجال الوظائف لأن موقفنا حرج للغاية ويستغنون عنا لأتفه الأسباب.

---

(1) فكنا: حلنا

– الصورة قاتمة فعلا فما فرصتي وسط هذه العتمة
– ولا واحد في المائة.. لا شيء سوى أن تبيع نفسك لهم ألديك استعداد؟
– بضاعتي قصص قصيرة لا تصلح في دنيا التراشق الإعلامي.
– أعرف هذا عنك منذ قرأت قصتك الأولى في صباح الخير.. أكتب قصصا وسأساعدك في نشرها بسرعة.. أمعك قصة؟
– نعم "المبعدون "

قدمني إلى تيسير بن موسى وهو ليبي الجنسية عاش منفيا في سوريا قبل الثورة وعاد بعدها ليتولى موقع رئيس تحرير مجلة الثقافة الأسبوعية ملحق جريدة الفجر قدمت له القصة ونظراً لطولها حولها مع التوصية إلى مجلة الثقافة العربية الشهرية. أنهى تيسير اللقاء مطالبا إياي بتزويده بقصص قصيرة جداً وسيصرف لي مقابلها مكافأة خاصة إكراماً لعزيز المصري منحني صديقي عدة دنانير على أن ألجأ إليه كلما تأزمت الأمور.

عدت بعد يومين لمعرفة خط سير قصتي وهل قرأت وأجيزت قالوا لي عند المصري فوق، صعدت بحثا عن المصري فوجدت نفسي وجها لوجه أمام شاعر العامية المتميز محسن الخياط ولم أكن أعلم بوجوده هنا وهو من يشرف على مجلة الثقافة العربية من الباطن، قابلني بحرارة بالغة وكان قد نشر لي قصة في باب أدباء الأقاليم بجريدة الجمهورية وبشر بي في عموده الأسبوعي.. سحب مقعده وجلس بجواري. استبشرت خيرا بوجوده في هذا الموقع لأن موقعي ازداد سوءً. شعور مدمر بالإعياء والإحباط ورغبة ضاغطة في

(1) خائب : لص

بكاء عنيف لأن الكفيل بدأ يتذمر من إقامتي في بيته دون مبرر فهو لم يأخذ مني شيئا.. ولن، سألني صباحا بضيق شديد:

– ايش درت (1).

– ربنا يسهل.

– باهي (2).. عند ربي وربك.

– غدوة (3) آخر يوم.. وبعدها.. يا ترحل يا أسجلك باسمي وتشتغل عندي.

إذن.. فرصتي ضئيلة لأن قانون الإقامة يشترط تعجيل الأجنبي خلال أسبوع من دخوله إلي البلاد فكرت في طرق باب الوزيرة حكمت أبو زيد وفكرت أيضا في نادي العروبة وإذاعة الوطن العربي.. لكن كان في داخلي مضادات حيوية ضد هذه المذلات. قال لي محسن الخياط فرحا:

– انت هنا ومنذ متى؟

حكيت له معاناتي في مدينة الثورة وبحثي الفاشل عن وظيفة والتوصيات التي معي وأنني لا أحلم بمنصب رئيس تحرير جريدة وإنما عن عمل شبه محترم يقيني شر الجوع والعودة الفاشلة.

– حظك مهبب يا..... الأيام دي مافيش ولا خرم إبره لمصري واحد وكلنا علي كف عفريت.

– انصحني!

– أكتب وسأنشر لك قصة كل شهر وبمكافأة متميزة.

– لي قصة عندك!

– اسمها؟

– المبعدون

---

 (1) درت : عملت ، (2) باهي : حاضر ، حسنا ، نعم (3) غدوة : غدا

- ينخرب بيت ابوك..هو انت.
- في اية يا محسن بك..خوفتنى.
- وعاوز تنشرها في ليبيا؟
- هي قصة ليس لها تماس مع السياسة.
- بل في صميم السياسة.
- كيف؟
- انت كاتب عن السلكاوية (1) وتعرضهم للمنصب من المقاولين المحليين وممارسات الشرطة ضدهم.
- هذه حقائق وليست من الخيال.
- هنا لا يعرفون مسألة تدرج الألوان.. يا أبيض يا أسود.
- معهم أو ضدهم وهذه التهمة تدينهم تماما شعبا وحكومة..
- تجاوزها واكتب غيرها
- في أي اتجاه؟
- أكتب عن الفقر والقهر والبحوث والمعتقلات في مصر.. أكتب عن الآثار الضارة للانفتاح العشوائي.. أكتب يا أخي عن عمالة السادات وانقلابه على ثورة يوليو.. لو كنت خائفا اكتب عن ليبيا الملكية وسأزودك بأرشيف كامل عن هذه الحقبة.
- لا أكتب بهذه الطريقة وهمي الإنسان في كل مكان.
- في هذه الحالة ابحث لك عن وظيفة بعيدا عن الإعلام والمؤسسات الثقافية الرسمية وحتى لا تتورط مثلي.
- انت متورط؟
- طبعا أنا شاعر عامية وفلاح وحبي لمصر ليس له حدود.

---

(1) السلكاوية : الذين يتسللون للبلاد عبر الأسلاك الشائكة

– ومن ورطك إذن؟

– جئت مرافقاً لزوجتي المدرسة ولم أجد عملاً سوى في الصحافة الحكومية نظراً لعدم وجود صحف خاصة. والسادات كما تعلم لا يتسامح مع المعارضين ووصلتني تحذيرات من أصدقائي في مصر بعدم العودة هذه الأيام لأن اسمي في القائمة السوداء وترقب الوصول فصرت (كالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقي) مع أنني لم أكتب عن السادات بشكل مباشر إنما عن مجمل الأوضاع.

لم يبق أمامي الآن سوى تسليم نفسي للكفيل أو العودة إلى بلادي بينما لا أملك أجرة الطائرة.. مأزق.

أديب بدرجة عامل تراحيل

استرددت من ذاكرتي بعض قراءاتي عن معاناة عمال التراحيل وحياتهم البائسة فلم أجد تشابها بين الواقع وأنفار محمد صدقي وحرام يوسف إدريس ولا حضيض جوركي ولا حتى ما كان يمارسه الإقطاع قبل الثورة الروسية..

هنا.. الحياة تحت الصفر؛ أكشاك من الصاج تعكس الحرارة وتحيل الطقس داخلها إلى جحيم في صحراء ليبيا في منطقة مجهولة على الخريطة؛ العمال يتكدسون داخل هذه الأكشاك كالحيوانات واللوط المتشفي كالوباء وسرقة المدخرات إن وجدت.

وعنف التعامل بالاشتباك اليدوي لأتفه الأسباب والرائحة الكريهة تفوح من أجساد لم تعرف الماء منذ فترة. جرب وهرش، فالماء بالكاد للشرب والطهي، والطعام لا يزيد عن العدس والملوخية الناشفة والفاصوليا كذلك، ويتم طهيها بالصلصة والماء فاللحوم كأنها محرمة وبعضهم يكتفي بالخبز الحاف يلوكه في تلذذ.. فهؤلاء التعساء يعملون يوماً ويبطلون أياماً والمحظوظ من يعمل نصف الشهر وهم رهينة في قلب الصحراء ويحلمون بمعجزة تنتشلهم من هذا المأزق.. كأن تتغير القوانين ويحصلون على الإقامة.. فرغم أنهم دخلوا بطريقة مشروعة.. إلا أن موقفهم الحالي شبيه بمن دخلوا متسللين وعندما يأتي ملاحظ المقاول لاختيار من سيعملون.. يندفعون نحوه في جنون وكأنه آخر يوم عمل في حياتهم وعلى مدى شهور كانوا بالكاد يحصلون على ما يبقيهم أحياء.

وعندما وصلت في المساء متأخرا..عانقني زعيمهم قائلا بسخرية:

– وإيه اللي رماك في جهنم يا خال؟

أبعدته عني متأففا لأن رائحته لا تطاق.. أحس بهذا فقال بسخرية أشد:

– بكره بعده هتعفن زيينا لأن مافيش ميه للحموم.. هو حضرتك نوبي؟

– نعم

– وإيه اللي رماك في كار المعمار مش برضه جماعتكم اللي قالوا زمان الـ.. في الـ... ولا شغل الفاعل.

– كان هذا في مطلع القرن ولكنهم الآن يعملون في كل مجال.

وفى بادرة طيبة كشفت عن معدنهم المصري وشهامة أهل الصعيد وفروسيتهم رغم الأزمة التي يعيشونها والتي قد تطفئ الإنسانية في قلب أرق البشر.. تداولوا أمري بينهم وقرروا تحمل حصتي من العمل عندما يحل عليّ الدور والبقاء في الكشك لحراسة متعلقاتهم والقيام بعملية الطهي وكتابة الرسائل فقبلت المهمة مسروراً واعتذرت له عن تأففي من رائحته.. صافحني بحرارة وقال ضاحكا:

– ولا يهمك يا خال أنت هنا بين أهلك وحبايبك والبرابرة إخواننا وحتى لو كنت نصراني كنا برضه شلناك وسطينا.

لكن ملاحظ العمال كان له رأي آخر لأنه الذي يقرر من يستحق الرأفة وهو الراقد على فراش المرض المقعد. ورغم أن العمال

حاولوا إقناعه بأنهم سيتحملون حصتي من العمل فيما بينهم إلا أنه أصر على استدعائي متسائلا بعدوانية:

- ولما أنت مش قد الشغل جيت هنا ليه؟

عبثا حاولت إفهامه بأن البادرة كانت منهم ولم أطلب من أحد إعفائي

- شافوك طري وما تنفعش في كار المعمار.

- خليك مؤدب وأنا أرجل منك.

- نشوف.

وفى محاولة لإفشال مهمتي وتصعيبها سلمني حصتي اليومية في العمل وهي عبارة عن حجرة مليئة برمال الصحراء.. جبل من الرمال عليّ إزالته حتى المغيب لكي تحتسب يوميتي وهذه الرمال في حاجة إلى لودر وليس لكوريك ومقطف حاولت.. بشرفي حاولت وحتى صلاة الظهر لم أكن قد انجزت شيئا يذكر ولا حتى ربع المطلوب. وعندما اشتعلت الشمس وتحولت الغرفة إلى أتون.. تمددت على الأرض لاهثا والعرق يتصبب من كل جسمي..

- نعم يا أخويا..أنت جاي تنام هنا مخصوم منك نص يوم.

لبثت في وضعي المنهار وحتى لم اعتدل..كان تفكيري منصبا في وسيلة للخروج من هذا المأزق والعودة إلى الوطن والجلوس بين أسرتي وأمامنا طبق الفول وأقراص الطعمية الساخنة.. لكن عفريت المقاول كان ما يزال يقف فوق رأسي ضاغطاً ومستفزاً:

- قم.

- مش قايم.

- فز.

- قلتلك مش قادر.

- مخصوم منك يومين.

- طظ .

- وبترد عليّ كمان.

تقدم مني وفي يده الكوريك.. سبقته بلكمة عنيفة، وركلته بكل المعاناة التي مررت بها.. ضربته بعنف بكل ما أملك من قوة.

ضربته وكأنني أضرب كل الذين أهانوني في مراحل متعددة من حياتي حتى بدأ ينزف بعد تحطم أسنانه الأمامية. تجمع العمال وحالوا بيني وبين قتله. هدءوني وكان يصرخ بجنون..

- كتفوه ابن المجنونة.. كتفوه.

ويبدو أن العمال كانوا يعانون منه فتركوني لحال سبيلي فحملت حقيبتي ورحلت.. لكن إلى أين؛ في قلب الصحراء ولا سيارة تمر حتى بالصدفة ولبثت جالساً في العراء حتى الصباح عندما التقطتني سيارة شرطة وأعادتني إلى طرابلس.

عدت للكفيل أستجديه مساعدتي في الرحيل ولأنه كان لا يزال متأثراً بمن خدعوه.. قابلني بعدائية وقرف..

- توا (1) إيش تريد مني؟

- تذكرة الطائرة وتأشيرة الخروج.

- ولا مليم أحمر.

- سأشكوك للسفارة.

- اشك حتى لربك.

نجله الكبير، الطالب الجامعي كان متعاطفاً معي منذ وصولي. تدخل بيننا. قادني إلي حجرته. طيب خاطري، التمس العذر

---

(1) توا : الآن

لأبيه بسبب الظروف التي مر بها وسألني:

– سمعت إنك تكتب.

– هواية.. محاولات..

– وأنا هاو أيضا.. قرأت لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ من عندكم ثم لمعظم الكتاب الأجانب وأعجبت بالعجوز والبحر وفي واحد سوداني.. شنو اسمه.. أيوة تذكرت.. الطيب صالح.

وتساءل في النهاية وكله على استعداد لمساعدتي:

– شن تبي (1).. العمل أم السفر؟؟

– العمل طبعاً.

– ماذا تجيد غير كتابة القصص؟

– أستطيع التكيف مع أي عمل عدا كار المعمار.

– مفهوم.. هذا مفهوم.. دعني أتصرف..

– أرجوك.. عجل.

– أيناسبك بائع في محل أو مطعم أو في دار عرض.

– كلها تناسبني.

توقف أمام مبنى وزارة الداخلية قائلا:

– أشبح؟!.. مشيراً إلى الشعار المكتوب على واجهة المبني..

قرأت: (إلغاء القوانين المعمول بها الآن واستمرار العمل الثوري)

– بلد بلا قانون.. كيف تكون.

– تكره الزعيم.

– ليس بالضبط. ولكنني لا أعرف إلى أين سيقودنا بثورته.. لا صحف ولا تنقل بسهولة ثم ما علاقة الثورات بقفل

---

(1) شن تبي: ماذا تريد

البارات.. تصور من يريد السكر.. يسافر إلى مالطة.. الواحد منا عندما كانت الأمور تتأزم معه يدخل أي بار ويشرب زجاجتين جعة فيرتاح والآن بأي وسيلة نعالج كمية القرف والغضب.. هل ننفجر؟ قل لي بالله عليك.

– يقفل البارات ليش؟

– دولة إسلامية؟

– ودبي ومصر وتونس والمغرب وسوريا والجزائر.. أليست دولا إسلامية؟؟؟

– الزعيم ثائر من نوع فريد.

– تبي الصراحة.. بيني وبينك.

– قل ولا تخف.

– إنه مصاب بانفصام الشخصية.. ينام ويحلم فتصبح أحلامه قرارات.. رجل عجيب وغريب.

ثم توقف وغير مجرى الحديث.. سألني:

– من أي البلاد أنت؟

– نوبي.. أسمعت عن النوبة؟

– نعم بحدا السودان.. لقد زرت معبد أبي سمبل.

– بالمناسبة..ما هي مشاريعك المستقبلية؟

– الهجرة إلى أوروبا.. بلاد العرب كلها سجون وتيارات إسلامية تكاد تحرم الحلال.. هذا شيء مقرف وضد التطور.

توقف بي أمام مقر مؤسسة الشرق للأفلام والتي تملك وتدير أربع دور عرض في طرابلس ورئيس مجلس إدارتها ابن عمه كما قال لي.

شركاء لا أجراء



يبدو أننا جئنا في وقت مبكر..فلم يكن بالمكتب سوى الأستاذ خالد مجاهد المصري.. محاسب المؤسسة ومديرها الإداري..شاب دمث الخلق متواضع باسم رحب بنا تحاورنا عرف ظروفي كلها وقال لي بسعادة وفرح:

– على فكرة قرأت لك قصة في مجلة صباح الخير كل القصص التي كانت تنشرها المجلة وكذلك رباعيات جاهين.

– من لفت نظرك من بين هؤلاء؟

– مجيد طوبيا في "الجاحظون" وخمس جرائد لم تقرأ وأحمد هاشم الشريف وأسماء أخرى.

– إنني سعيد بك.. نادرا ما تحصل على قارئ في بلاد العرب.

فرد مطمئنا:

– لا تقلق.. العمل هنا يناسبك وتوجد فرصة وسأدعمك بكل طاقتي.. أهلا بك أديبا وصديقا.

جاء المدير.. مصطفى بيت المال.. طويلا مهيبا وسيما بشاربه المفتول ونظرته الحادة النافذة. حيانا بإيماءة من رأسه. صافح ابن الكفيل.سأله:

– كيف حال الشيباني (1)

– والله باهي.

– بيقولوا المصروة ضحكوا عليه.

– موضوع تافه وبسيط.

– والله يا خوي.. قلتله..نصحته.. تبي حاجة في مصر إمشي للجهات الرسمية.. لكنه طماع يبي يوفر.

(1) الشيباني: الكهل أو الأب

- حصل خير.
- شني الزيارة السعيدة هادي.. إيشى بيك (1)

أشار بيده نحوي وقال بايجاز وهو يقدمني له:

- هادا.
- خيره (2) هادا؟
- يبي شغل.

تدخل الأستاذ خالد مساندا:

- شاب ممتاز وكاتب قصة ومكسب للمؤسسة.

نظر المدير لي وحدق في وجهي بتركيز وتساءل:

- أنت سوداني.
- نوبي مصري.
- وإيش تبى تشتغل؟
- أي حاجة.

تدخل الأستاذ خالد لتسهيل الأمور:

- لدينا عجز شديد في عمال الصالة بعد ترحيل المصريين.

وقال ابن الكفيل:

- والله يا سي مصطفى أنه صاحب صغار(3) وممـلح (4).. ساعده.

وقال مصطفى:

- لدينا منشور بعدم تشغيل العمالة العادية من مصر.

تدخل خالد مهونا:

- هذه مسألة يمكن حلها بسهولة.. لدينا في الهيكل التنظيمي للمؤسسة كهربائي وسباك ونقاش.. سنعتبره النقاش وتغير لـه

(1) إيشي بيك : ماذا بك (2) خيره : ماذا به (3) صغار : أولاد (4) مملح : فقير

المهمة في جواز السفر.. هذه الأمور سهلة جدا.. لأن مندوب مكتب العمل موظف مسائي عندنا كما تعلم.

قال سي مصطفى بيت المال وهو يدنو مني بمقعده ويلتصق بي:

– قلت نوبي أنت؟

– أتعرف شيئا عنا؟؟

حكى لنا مصطفي بيت المال قصة ظريفة عن أهل النوبة. عندما كان في القاهرة ويقطن شقة مفروشة في الزمالك وفقد حافظة نقوده وبها ألف دولار في المصعد وعثر عليه البواب عم عثمان وأتى بها إليه.. وعندما عرض عليه مكافأة مائة دولار وهي نسبة الـ 10٪ المقررة في القانون المصري رفض بإباء وكبرياء قبولها.. فكبر في نظري جدا وهكذا طلبت سائقا وطاهيا نوبيين وكلاهما لا يقلان عن عم عثمان أخلاقا وأمانة وكان بودي جلبهم إلى ليبيا ولكنهم يفضلون دول الخليج والمسألة مفهومة طبعا..

– من أجل خاطر هؤلاء.. أهلا بك في مؤسستنا.. يا خالد.. دبر له الإجراءات وأي مشكلة تقابله أعلمني بها وأصرف له نصف شهر سلفه مرتب ثم فتح حافظة نقوده وقدم لي عشرين دينارا هدية لا ترد.

أحسست بفرحة غامرة بعد يأس مميت. ناس لا أعرفهم يمهدوا لي في الطريق وكنت في الأيام السالفة أردد لنفسي أشعار شاعر البؤس عبد الحميد الديب (إن حظي كدقيق فوق شوك بعثروه.. ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه) وأيضا (وهام بي الأسى

والبؤس حتى.. كأنني عبلة والبؤس عنتر).. والآن (ضاقت ولما أستحمكت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لن تفرج) لا أخفي عليكم بأنني في لحظات اليأس.. كدت أقدم نفسي لوزير الإعلام ثم فكرت في الانتحار.. والآن أرى أولادي يتقافزون حولي فرحين وزوجتي تزغرد والدنيا كلها مساحات من الفرح والبهجة.

سألني خالد:

- أين ستقيم؟

- في الواقع لا أقارب لي هنا.. كلهم تقريبا يفضلون السعودية والكويت.

- مفهوم طبعا.. لكن مشكلة السكن عويصة هنا وخصوصا عندما تكون بمفردك..عموما لا تقلق.. سأتدبر أمرك.

- هذا قدري.

- سنتحداه معا.

- من؟

- القدر.

- أتؤمن به.

- هذا من تراثنا الديني وثوابتنا.

- وما أكثر ما في هذه الثوابت من مشاكل.

- لا تجاهر هنا بمثل هذه الآراء لأنهم متطرفون. تصور الواحد منهم يهرب إلى مالطة ليسكر ويزني.. لكنهم إذا وجدوا مفطرا في رمضان جرسوه في الشوارع وخصوصا من التوانسة والمصرين؛ شيزوفرنيا.

- المهم..عرفني بما يحبون ويكرهون وبمساحة الحرية المتاحة.

– أرحب بك صديقا بشرط واحد.
– وما هو؟
– أن تبتعد ما أمكنك عن المزايدين لأني منوفي ومتعصب لبلدياتي.
– أموت جوعا ولا أبيع وطني.
– أتحب السادات؟
– لدي موقف ثابت لا يتغير من العسكر الذين يحولون الأوطان إلى عزب وهو منهم.. لكن الأوطان باقية والعسكر إلى زوال.
– تحليل رائع وأظنني مثلك.
– مهم جدا الفصل بين الوطن والحاكم رغم إن التراث العربي يربط بينهما حسب قول شاعرهم (وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري)
الوقت سرقنا تنبه خالد للمشكلة التي تواجهني.. قال:
– الفنادق الشعبية بعيدة عن هذه المنطقة.. فهل نستطيع قضاء هذه الليلة في الحديقة المجاورة؟
– لست مرفها كما تظن!
– اتفقنا..

قضيت ثلاثة ليال فوق مقاعد الحديقة أنام ملئ جفوني متوسداً يدي ومحتضنا حقيبة ملابسي. لا أخشى مداهمات الشرطة لأن أوراقي سليمة ولا عبث التوانسة المتشردين بجيوبي لأني لا أملك ما يمكن سرقته وساعدني الطقس الصيفي المعتدل على الاحتمال.

أشعر بأحدهما يحوم حولي فأتصنع النوم وعندما يدنو.. أقوم فجأة فيفر هاربا.. وكان خالد يحاور رفاقه في السكن محاولا

إقناعهم باستضافتي بينهم لأني شخص غير عادي ولست من العمال الذين لا يحبون مخالطتهم.. رفاقة كانوا جميعا من المنوفية من المدرسين وأحدهم هو المهندس فوزي أبو النور ابن شفيق عبد المحسن أبو النور رجل الثورة الشهير وهو الذي يقود حملة الرفض. في اليوم الرابع قال لي خالد فجأة وبلا مقدمات:

– هيا معي.. سأخوض معهم معركة وعليك أن تبقى على الحياد فهم أقاربي وسنتصالح في نهاية الأمر لا تخسرهم بسببي.

– مسألة وقت ويتعودون عليك.. لن تبات ليلة أخرى في الحديقة.

ابتاع لي كل ما يحتاجه عازب في بلاد الغربة. كانت علاقتي به قد توطدت بعد قراءته لقصة "المبعدون" وقال متباهياً:

– أنت فنان موهوب.. خسارة.. والله أكبر خسارة أن يتعرض مثلك للبهدلة.

– هذا نصيبي من الدنيا.

وحدث اعتراض متوقع وسباب واشتباك بالأيدي ورفضوا قبولي بينهم وهددوه بترك المنزل..

– اشرب بقى الإيجار لوحدك.

– وأنا قدها.

لكن المهندس فوزي أبو النور والذي جاء في الوقت المناسب وفض الاشتباك بين الطرفين على أساس قبولي لفترة مؤقتة.

تصالحوا.. جلسنا حول براد الشاي وكأننا في سهرة سمر في إحدى قرى الريف.

ثرثرنا وتحاورنا واكتشفوا خلفيتي الثقافية وروحي الفكاهية وبالتدريج صرت من هذه الأسرة المنوفية المتعصبة وذاب الجليد وتذوقوا طعامي فأحبوه وصرت الطاهي الرسمي لهم بسبب فراغي في الفترة الصباحية وتساءلوا في حيرة:

– أين تعلمت فنون الطهي؟

– أنسيتم أنني نوبي وهذه بضاعتنا.

– ونحن نعفيك من إيجار السكن.

تدخل خالد:

– الإعفاء من السكن ليس كافياً وأيضاً لن يساهم في ثمن الطعام

قلت معترضاً:

– لا يا أستاذ خالد.. أدفع مثلكم ولن أكون عالة عليكم..

يومياً كنت أبدل وأتفنن في الوجبات حتى صار سكننا مزاراً للمغتربين من أقاربهم في ولائم أسبوعية لا تنقطع وفي إحدى هذه الولائم.. طبيب بشري من الضيوف أعجبه القاورمة المكون من اللحم الضأن وكرات البصل الصغير المحمر.. وكانوا قد لحسوا الأطباق من حلاوة مذاق الوجبة. فقدم لي الطبيب عرضاً مثيراً؛ فهم ثلاثة أطباء يقطنون في حي الأندلس الراقي ولديهم مشكلة مع الوجبات الجاهزة ويرغبون في طاه متميز مثلي مقابل المسكن والمأكل المجاني وراتب شهري خمسون ديناراً. قلت على الفور دون تردد:

– القرار في يد الأستاذ خالد.

رد خالد بضيق شديد:

- يا دكتور هذا صديقي وكاتب قصة متميز وليس خادماً كما تظن.. لقد جرحته فهل تعتذر..؟؟

قال الطبيب في خجل:

- أعتذر وأسحب عرضي.

رد خالد:

- إذا قبل فهذا شأنه.

قلت:

- لن أبيعك يا أستاذ خالد بكنوز الدنيا.

قال الطبيب:

- في هذه الحالة.. أفسحوا لنا مكاناً بينكم أو انتقلوا للسكن معنا.

رد خالد:

- لا هذا ولا ذاك.. لنبقى أصدقاء وأهلاً بكم في أي وقت.

ثم أضاف ضاحكاً:

- انت هتفلسنا بالضيوف خش ع العدس.

وبعد برهة:

- تقديراً لإخلاصك سأتحدث مع مجلس الإدارة لتوفير عمل إضافي لك في الفترة الصباحية لكي يتحسن دخلك.

وقدم لي شرحاً وافياً للأعمال الإضافية المتاحة مقابل أربعين ديناراً في الشهر لأربع ساعات عمل:

- لديهم عامل رفع علب الأفلام من الأرضي للرابع وهذا عمل مرهق لعدم وجود مصعد ويحتاج لعتال وهو لا يناسبك، ولديهم عامل لصق إعلانات في الشوارع وفي الشتاء حيث

الأمطار والرياح عمل غير مستحب يهرب منه الجميع ثم مساعد ميكانيكي المؤسسة تساعده في ترميم الأفلام القديمة وجلب علب الأفلام من المخزن وهو عمل سهل لكن الميكانيكي سيستغلك "ويمشورك" لحسابه ولا أحبذ هذا لك.. وهناك عمل معي.. تذهب إلى الضرائب يومياً لدمغ التذاكر في غرفة غير مكيفة وفي عمل روتيني ممل. وأخيرا عامل نظافة.. فكر وقرر على راحتك..

قلت بلا تردد:

– عامل نظافة.

– دعني أبصرك.. التراب الناعم قد يسبب لك الحساسية لأن المكان بلا تهوية..

– خليها على الله.

– اتفقنا

تسلمت عملي الصباحي تحت إشراف محمد الغرياني مدير دار العرض هو لا يتدخل بالأمر والنهي والتوجيه.. إنما يجلس مع أقاربه يحتسون الشاي "ويهدرزون" (1).. يتحدثون كثيراً ويعملون قليلاً بينما كنت أنهمك في العمل ولا شأن لي بهم.. أنهي عملي في نظافة البلكون وأهبط لأساعدهم في الصالة حتى نهاية ساعات العمل.. خصوصاً وأن عامل نظافة الصالة مسن وهو والد أحد المديرين.. فكان يوصي بي خيراً عند نجله ارتفع نجمي في المسكن والعمل وربحتهم جميعاً لصالحي بسبب سعة أفقي وتجاوزي للهنات والصغائر.. وهذه المسائل من مزايا سعة الثقافة والقراءة المتنوعة وفي اليوم الأول لعملي عثرت على ورقة مالية من فئة

(1) الهدرزة: الحكي

العشرة دنانير فقمت وكما هو واجب بتسليمها للغرياني.. فقال بلا مبالاة:

- دسها في جيبك.

في اليوم التالي حين سألته عن مصير هذا المبلغ.. قال ضاحكاً:

- هذا من عند ربي.. أخذ من عند صاحبه وأعطاك.. حلال عليك.

- أهذا معناه أن الأشياء الملقاه.. حق مشروع لمن يجدها.

- هذا هو.

- والأماكن العامة ووسائل المواصلات.. أهي أيضاً كذلك.

- أي مكان.

سألت الأستاذ خالد وأكثر من ليبي فأكدوا جميعاً صحتها.. إنها ثقافة شعب لا وجود لنظيرها بين أمم الأرض.. لكن ليبيا من الصفوة قال لي غاضباً:

- هذه دوي (1) فارغة ولا سند لها من الدين والقانون لكن جماعتنا بدو مهابيل..

- وعندكم في مصر إيش بيصير في هذه الحالات؟

- إذا لم تسلم ما تجده تقع تحت طائلة القانون.. ولك عشرة في المائة مكافأة لو قمت بالتسليم.

- هذا هو الكلام الصحيح..

وأعتقد بأن هذه ثقافة شعبية خاصة بالبسطاء الفقراء لا يؤمن بها الصفوة والمتميزين والطبقة الحاكمة، وذات يوم عثرت على حافظة نقود بداخلها أوراق ثبوتية ومستندات وثلاثين ديناراً

(1) دوي: كلام فارغ

تركتها جانباً ريثما انتهي من عملي وأتجنب الغرياني وأسلمها بشكل رسمي للأستاذ خالد. لكن جاء من يسأل عنها تأكدت من تطابق صورته مع صورة البطاقة.. سلمتها له قائلاً:

– سليمة يا شاب.. كما هي.

فتحها وأخذ منها الأوراق ورد لي النقود قائلاً:

– أما الأوراق فهي لي.. أما النقود.. فهي لك.

– كيف.. أليست نقودك؟

– كانت لي ولمّا وقعت مني صارت لك من عند ربي.

اغتظت. قلت بحدة:

– خذ نقودك يا رجل.

قال وهو يبتعد عني باسماً:

– مسامحك يا سوداني.. مربوحة.

ولمّا حكيت هذه الواقعة الطريفة للأستاذ خالد قال ضاحكاً:

– ناس بدو على درجة كبيرة من الكرم والتسامح.. لكن الثورة أفسدت الجيل الجديد وصار عندهم تضخم رهيب.. اسمع دعك من الغرياني.. إذا عثرت على شيء مهم مثل هذه الحافظة اذهب بها إلى قسم الشرطة لكي تخلي مسؤوليتك فليس في كل مرة تسلم الجرة وحتى لا تقع في مطب لن تجد منه مخرجاً.

واستقرت بي الأحوال تماماً وصرنا أنا وخالد ثنائياً فريداً لا نفترق إلا عند النوم. وحين أنهي عملي الصباحي أصعد إليه وأعاونه في ترتيب الأوراق أو أعد له الشاي وحين لا يكون لديه

عمل في المكتب يأتي إلى البلكون ويجلس ونتحاور وأنا أعمل فأنبه عليه بالحذر من الغبار المتصاعد..

- "هو أنا يعني أحسن منك"

كان متحرراً وقارئاً للأدب والفكر ارتاح لأفكاري عدا ما يتعلق بالدين لأن جذوره ريفية وما يزال يعيش في تلا منوفية وأهله هناك ووالده من المتدينين التقليديين ولا يسمح بأي تجاوز في هذه الناحية حتى لو كانت نكتة تمس أحد المبشرين بالجنة من بعيد أو حتى بالتلميح.

وهو متأثر بوالده في هذا الاتجاه. وعندما أخرج عن حدود المسموح يحذرني..

- " لأ كده مش حلو.. خلينا في النسوان والحب والنكت ".

فالدين في الريف من الثوابت العميقة كسريان الزيت في الزيتونة وعندما يجدني صامتاً بعد التحذير يفتح باب الحوار من جديد

- قلت إيه عن معاوية؟

- أسوأ خليفة في التاريخ الإسلامي.

- يا رجل.. هذا من أهم رموز الإسلام.

- ولو.. هو الذي أسس توريث الحكم.

- بقولك إيه.. فرصة مش سعيدة.. نلتقي على الغداء.

صار خالد جزءً من حياتي لكنه كان شديد التعصب لبلدياته.. يركبه ألف عفريت عندما يمسه أحد بكلمة نقد موضوعية فأقول له مستغرباً:

- أنت يا خالد تحيرني أحياناً.. قد تقبل النقد الموجه لعمرو

بن العاص مثلاً ولا تقبله على السادات.. أهو أهم في نظرك؟

- طبعاً.. عمرو فتح مصر ومكث فيها.. لكن السادات طرد إسرائيل من حافة القنال وغداً سيخرجون من سيناء كلها.

وبالمناسبة المنايفة يتعصبون لابن ميت أبو الكوم بالحق وبالباطل.. وهذا أمر طبيعي كما تعصب أهل الصعيد لعبد الناصر.. فأين العدل والاعتدال؟

وكما قيل أن دوام الحال من المحال فقد حدث تطور خطير في محيط العمل كدر صفو العلاقات الإنسانية السائدة وتحول الأصدقاء إلى أعداء وذلك عند سريان قانون "شركاء لا أجراء" وهو أحد أهم مكونات الكتاب الأخضر وبهذا القانون صار العمال الليبيين الذين يعملون في المؤسسة شركاء في رأس المال وهذا أبعد ما يكون عن التأميم أو النظام الشيوعي.. لكن أصحاب المال لم ينحُّوا أو يبعدوا عن مواقعهم والذي سيقرر وضعهم ليس الحكومة.. إنما انتخابات حرة داخل المؤسسة لاختيار اللجنة الشعبية التي ستدير المؤسسة والمكونة من خمسة أفراد وستتم الانتخابات باشتراك الجميع، أصحاب رأس المال والشركاء الجدد وحدثت اشتباكات ظريفة قبل إجراء الانتخابات بين الحاج عبد الله عامل النظافة وزعيم المعارضة والغرياني مدير الصالة.. يقول الحاج عبد الله مازحاً للغرياني:

- توا رأسي برأسك.. أنت تكنس الصالة يوم وأنا يوم.

فيأخذ الغرياني الكلام بجدية ويرد غاضباً:

- شني.. أنت مهبول.. هادا رزقنا أنت ناسي إن أنا اللي شغلتك معانا؟؟

- باهي هادا كان قبل الثورة.

فيتدخل مصطفى بيت المال ليغيظ الغرياني الغاضب:

- الحاج عبد الله عنده حق وهو شريك ومتساو معنا في الحقوق والواجبات ويستطيع أن يقصيك عن وظيفتك ويحولك إلى عامل نظافة ويجلس مكانك.

ينتفض الغرياني واقفا وهو يرتعش من هول المستقبل..

- والله باهي.. يعني أنا أكنس وهو يبقي المدير.. وين هادا؟

يستفزه مصطفي بيت المال ضاحكا:

- عندك اعتراض.. إمشي للأخ العقيد أنا شخصيا سأختار الحاج عبد الله لموقع مدير الصالة.

- والله العظيم كنت أولع فيك وفي البلاد كلها!

- كداب.. وأنت أكبر خواف في البلاد كلها.

لكن الانتخابات تمت بهدوء، أستطاع أصحاب رأس المال تمرير خمسة منهم لإدارة المؤسسة من بين اثني عشر.. بينما الشركاء الجدد لم يفز منهم ولا واحد رغم مناكفات الحاج عبد الله ومحاولاته البائسة لدخول اللجنة الشعبية. وفي التعديلات التي جرت بعد ذلك فاز باقي أصحاب رأس المال بجميع المواقع القيادية وبقى الشركاء الجدد في أوضاعهم السابقة وكل ما سيحصلون عليه هو نصيبهم في الأرباح السنوية وأطلق العمال على أعضاء اللجنة الشعبية "عصابة الخمسة" رغم أنهم قاموا بانتخابهم وسألني الغرياني عن رأيي فيما جرى بصفتي من الكتاب.. قلت بوضوح وموضوعية ودون تحيز لطرف على حساب الطرف الثاني:

- هذا نوع من العدالة الاجتماعية.

- ياخدوا رزقنا؟!

- هذا قدركم.
- يعني أنت مع الزعيم؟
- أنا مع النص الأصلي الذي ارتكز عليه الزعيم لتقديم رؤيته الخاصة..
- وإيش هو النص الأصلي؟
- كتاب رأس المال لماركس.
- ومنو ماركس الميبون (1) هادا؟
- هو أصل النظام الاشتراكي في الصين وروسيا.
- يعني الزعيم شيوعي؟
- هو بلا هوية.. خلط كل الأوراق في بعضها.. كشري كما يقولون عندنا..

تدخل مصطفى بيت المال محاولاً إثارة الغرياني:

- أريت (2) يا غرياني.. إدريسنا طلع مع الزعيم.. رد بالك منه!
- لا يا سي مصطفى.. إنما انظر للمسألة من جانبها الإنساني وهذا القانون يعيد ترتيب البيت من الداخل وتوزيع الثروة النفطية على الجميع..

يتساءل الغرياني مندهشاً:

- نفط شنو؟ هذه قروشنا ورثناها عن أجدادنا قبل ظهور النفط.

رد بيت المال ساخراً:

- جدك منو اللي كان يشتغل في سيوة بعشرة قروش في اليوم، ولا اللي كان بيرعى جِمال السنوسي.. أجدادك يا غرياني ماتوا جوعاً..

---

(1) الميبون : الشاذ أو العلق بالعامية المصرية (2) أريت : أرأيت

- عيب عليك يا مصطفى.
- قول كلام معقول.. هذا من عرقنا وكفاحنا ومن كرم الجاعوني.

كان رجل الأعمال الفلسطيني الأصل الجاعوني مالك سلسلة دور العرض في طرابلس وبني غازي قد تنازل لعماله الليبيين لإدارتها مع الشراكة بعد الثورة.. لكن هؤلاء العمال استولوا على دور العرض بالتواطؤ مع حكومة الثورة وأبعدوا منها الجاعوني نهائياً.. قال الغرياني مستسلماً:

- باهي يا سيدي.. لكن مش من فلوس النفط اللي كلها رايحة للغريب وراحت بلاش..

قلت مصححاً:

- وكل هذه المشاريع العملاقة.. أليست من فلوس النفط؟

رد غرياني ساخراً:

- وهل صلاح الدين بوكاسا من بين هذه المشاريع؟

كان الحاكم الأفريقي الشهير قد أعلن إسلامه على يدي الزعيم في احتفال رسمي صاخب فمنحه العقيد عشرين مليون دولاراً ولمّا عاد إلى بلاده ارتد عن الإسلام مرة أخرى وكانت نكتة.

ولأن الحاج عبد الله سليط اللسان ومناكف ويعرف تاريخهم جيداً وأن الغرياني كان مجرد ساعي على باب مكتب الجاعوني وحقد الحاج عبد الله عليهم لن يتوقف وخوفاً من لسانه.. أراحوه من عمله الأصلي وعينوه مشرفاً على العمال في دور العرض الأربعة وصدق نفسه وبدأ يمارس الإدارة على العمال الأجانب ويتمنظر

عليهم وكان يتجنب الاحتكاك بي بسبب علاقتي المتميزة بـالأستـاذ خالد وبصفته الوظيفية كان معه مفاتيح دور العرض الأربـع .. ومـع آذان الفجر يقوم بفتح السينمات ويمشط الصالة والبلكون ويـأتـي في مواعيد العمل الرسمية كأن شيئاً لم يكن ومنذ تولى هذه الوظـيفـة لم أعثر على مليم أحمر وخوفاً من المسؤولية نـقـلـت هـذا الـتـوجـس لمصطفى بيت المال فقال غاضباً:

– ضبح (1) عليه القواد هدا.

ولمَّا تأخر الحاج عبد الله في المثول أمام مصطفى نده عليه بـنـفـسـه. رد من أسفل بلا مبالاة وتكاسل:

– داير (2) شنو يا مصطفى عندي شغل.

– تعال وإرجع.

جاء الحاج عبد الله ووقف على باب المكتب عاوجاً مشـنـتـه(3) في حالة تحدي:

– شن في يا مصطفى.

– من فضلك يا حاج.. حافظ على مقامات الناس.

– وشن درت؟

– لمَّا آني نقولك يا حاج تقول لي يا أخ أو يا سي مصطفى.

– هادا كان زمان!

– وتوا شن صار.

– رأسي برأسك.

– وهل هذا يمنع تبادل الاحترام.

– احترمتك وخليتك المدير.

– طظ فيك.. هادي انتخابات.

---

(1) ضبح : إنده (2) داير : عايز (3) المشنة : غطاء الرأس

- باهي العام الجاي نشوف حكاية الانتخابات ومن توا بنرتب ليها..
- رتب كيف ما تبي.
- على إيش ضبحت؟
- أنت ليش تفتح السينما بكري (1)
- أتمم بنفسي.
- على إيش؟
- زبون نسي نفسه ونام زبون نسي شنطة.
- أيوة شنطة؟ هذا بيت القصيد.
- إيش في؟
- وقع عند خالد.

وكان خالد قد كتب إقراراً عن مسؤولية الحاج عبد الله بأي متروكات داخل دور العرض الأربع تلاه عليه والذي وقع باستهتار وانصرف.

تساءل مصطفى باندهاش:

- يا خالد.. شنو رأيك في تصرفاته؟
- مركز قوة لأن نجله في اللجان الثورية.
- كل أولادنا في لجان الزفت هذه.. لكننا لا نسيء إلى عباد الله.
- عندنا مثل فلاحي يقول "هبلة ومسكوها طبلة".
- الحاج عبد الله هادا مش أهبل.. حويط ولئيم وحاقد وولد قحبة لكن شني والله لأربيه.. ظبور (1) أمه.

---

(1) بكري : بدري

حدثت واقعة مثيرة وجاءت في صالحنا جميعاً وفضحت الحاج عبد الله وعرته وذلك حينما لجأ عامل جزائري إلى الشرطة ببلاغ رسمي عن نسيانه حقيبة يد بها جواز السفر وخمسمائة دينار في صالة السينما مساءً ولمّا اكتشف فقدها عاد إلى السينما مسرعاً فوجدها مقفلة فجلس أمامها حتى الصباح وعند الفجر وهو بين الصحوة والنوم سمع صوت الباب وهو ينفتح وأحدهم يدخل السينما ويقفل الباب خلفه طرق وطرق ونادى لكن أحداً لم يستجب وأنه لا يريد سوى جواز السفر.

تعرضنا جميعاً للاستجواب حتى خالد والمدير وأنكر الحاج عبد الله فتحه للسينما مبكراً لأنه كان مريضاً ثم أضاف ليؤكد شهادته:

– إسألوا الفروخ (2) والمرة (3)..

استبعدني الضابط من الاشتباه بعد قراءته للإقرار الذي قدمه له الأستاذ خالد ولأنني مسئول عن البلكون والصالة من اختصاص ليبي آخر والذي أقسم على القرآن بأنه لم يجد في الصالة حتى قرشاً.

لم يبق مشتبهاً سوى الحاج عبد الله الذي ضيق عليه الضابط الخناق.. ولاحقه بالأسئلة:

– ع ليش (1) تفتح السينما بكري؟

– أنا ملاحظ العمال.

– وشن تلاحظ قبل وصول العمال؟ الكراسي الفاضية؟

– اسمع يا حاج توا نريد جواز السفر وخد الفلوس.

– أحلف على القرآن.

ضحك الضابط.. بل قهقه وقال:

---

(1) ظبور أمه: سبة موجهة للعضو التناسلي للأم (2) الفروخ: الأولاد (3) المرة: الحرمة

- إخواننا المصريين عندهم مثل: " قالوا لحرامي إحلف قال جالك الفرج " هادا اللي تبيه.

قال الحاج عبد الله متحديا:

- قلت ما عندي دير اللي تبيه.
- باهي هيا لحوشك نفتشه.
- لكن الشاكي براني.
- وإن كان هادا.. هيا معنا وإخلي البيت من الحريم.
- من أجل براني يشتغل عندنا.
- براني لكنه مسلم وموحد بالله وربنا ساوى بين كل أمة محمد.

قال الحاج عبد الله للضابط بصوت خفيض:

- لكن هادا من عند ربي.
- ربك بعد البترول بطل يرش فلوس.. هيا إمشي وهات الواحد (1).

لم يبق أمامه سوى الاعتراف والرضوخ، فجاء بالحافظة كما هي ونظراً لأن الشاكي أجنبي انتهت المسألة على خير اكتفى الضابط بلوم الحاج عبد الله والتنبيه عليه بعدم فتح أبواب السينما إلا في وجود العمال أو مديري الصالات ثم أعقب ذلك قراراً من اللجنة الشعبية بإعفاء الحاج عبد الله من عمله وسحب المفاتيح منه وصرف راتبه كاملاً وأجره الإضافي وهو جالس في منزله لكنه لم يكف عن الحضور اليومي والمناكفة وسؤال الأستاذ خالد بإلحاح ممل عن الأرباح ونصيبه منها وكأنه يتعامل مع محل بقالة وعبثاً حاول خالد إقناعه بأن هذه مؤسسة ولها ميزانية وأن الخسائر

(1) ع ليش: لماذا

والأرباح تتم في نهاية العام المالي وتصرف الأرباح بعد حساب الخسائر والمصروفات.

- مصروفات شنو؟
- الأجور والإصلاحات.
- وليش مصطفى ياخد خمسمائة دينار في الشهر.
- لأنه رئيس مجلس الإدارة.
- والغرياني.
- ماله؟
- يأخذ أكثر مني..
- لأنه مدير الصالة وعضو مجلس الإدارة.
- عصابة.. والله العظيم عصابة.

وبدأ الحاج عبد الله يستنزف المؤسسة بالسلف المتكرر بحجج وأعذار واهية مما أزعج الأستاذ خالد لأن السلف المتكررة فاقت حدود المبلغ المتاح في صندوق الزمالة لأن الحاج ابتلع الصندوق كله لمّا تقدم بطلب سلفة جديدة عرضها خالد على مصطفى بيت المال الذي أشر على الطلب " لا تصرف سلفة جديدة إلا بعد سداد السلف القديمة "

جاء الحاج عبد الله ثائراً، مهدداً، غاضباً وأرسل قذائفه في كل اتجاه قال لخالد:

- أنت يا مصري تصرف من غير كلام.. هادي قروشنا

وقال لمصطفى:

- وأنت يا مدير.. هادا حقي في الأرباح.

رد عليه مصطفى ساخراً:

(1)الواحد:تعبير متعدد الاستعمال يعني الشيء أو الحاجة" البتاع "بالعامية

– واشكون (1) قال لك في الأرباح؟
– وين راحت؟
– تجديدات، إصلاحات، تكييف مركزي، والأفلام نفسها قديمة ما عادت تجيب زبائن.
– كل يوم أمر على السينمات وكلها مليانة
– نصهم داخلين ببلاش.. عساكر شرطة وجيش ولجان شعبية ولجان ثورية وابنك لوحده كل يوم بيدخل أصحابه وجيرانه.
– باهي يا مصطفى توا أدير اجتماع للشركاء الجدد ونشوف.

وبالفعل تزعم الحاج عبد الله التمرد ودعا الشركاء لاجتماع عاجل قرروا فيه سحب الثقة من اللجنة الشعبية نهاية العام.. عندئذ أحس أصحاب رأس المال بخطورة الحاج عبد الله فوضعوه تحت المراقبة الشديدة على مدى ساعات اليوم.. والحاج يتمادى في تطرفه وتصرفاته الهوجاء. احتك يوماً بالسباك المصري المعين في المؤسسة وطالبه بتركيب سخان في منزله..

فسأله السباك متحدياً:
– وتدفع كام يا خفيف؟
– وداير (1) كم؟
– أنا بأخذ من الغريب خمسين دينار لكن أنت تدفع ستين؟

وكان السباك ممروراً من الحاج عبد الله.. فهو يمر على دور العرض الأربع بشكل منتظم يومي ويقوم بإصلاح التالف في دورات المياه.. لكن الأوقات التي يختارها ليلاً أو ظهرا أو صباحا حسب ظروفه ولم يشكو منه أحد طيلة سنوات.. لكن الحاج عبد الله ألزمه

(1) واشكون: من

بالتواجد اليومي في ساعات العمل الرسمية فكان السباك يأتي لينام فوق المقاعد ولا يقوم بالصيانة من باب العناد وحتى يحصل منهم على تنازل للعمل في مكان آخر وبأجر مرتفع جداً.. تساءل الحاج عبد الله بدهشة:

– أدفع كيف وأنت شغال عندنا؟

– أنا شغال في المؤسسة.

– لأ عندي لأني شريك.

– طظ في الحمار اللي خلاك شريك.

– تقصد منو؟

– اللي بالي بالك!

– قصدك الزعيم؟!

– قصدي اللي قصدي عاوز إيه بقى غور من وشي.

ولمّا تقدم الحاج عبد الله من السباك محاولا صفعه عاجله بضربة قوية بالمفتاح الفرنساوي على رأسه فذهب شاكياً للقسم وأيضاً للجان الثورية فجاء نجله ومعه زميل له أخذا السباك الذي اختفى تماما بلا أثر، ويبدو أن اللجنة الشعبية قد اتخذت قراراً سرياً دموياً بشأن الحاج عبد الله..

داهمته سيارة مجهولة فكسرت عموده الفقري وساقيه فرقد في البيت مشلولاً وأشاع أعضاء اللجنة بأن هذا من فعل أقارب وأصدقاء السباك المختفي وكانوا يتناوبون زيارته يومياً محملين بالهدايا والحلوى بل أنهم أغروا أحد رفاقهم بالتقدم لطلب يد ابنة الحاج عبد الله وتم الزواج السعيد في احتفال صاخب حضره

(1) داير : عاوز

أصحاب رأس المال والشركاء الجدد.. ويبدو لي أن إزاحة الحاج عبد الله كان ضرورياً لبدء مرحلة جديدة وخطيرة في مؤسسة الشرق للأفلام..

النهب المنظم

سألني الأستاذ مصطفى وأنا في مكتب الأستاذ خالد:

– تعرف تقص بوليط؟ (1)

– هذه عملية سهلة جداً لا تحتاج إلى مهارة خاصة.

– يعني في الزحمة عندك سرعة.

– جربني.. لكن لماذا السؤال؟

– توا تعرف.

ثم توجه بالحديث إلى الأستاذ خالد:

– يا خالد عندنا محصل رايح الجيش.. تفتكر إدريس ينفع مكانه..

– ينفع ونص لكن الشركاء الجدد سيعترضون ثم هناك قرار رسمي بعدم تولي الأجانب المواقع التي تتصل بتحصيل النقود

– هادي كلها أمور سهلة.. وإحنا اجتمعنا وقررنا ترشيح إدريس. هو أمين ويحترمه الرواد.. لكن انت شن رأيك

– صاحب الشأن أمامك

– هذه ترقية ولن يعترض.. شن رأيك يا إدريسنا؟

– تحت أمرك يا سي مصطفى لكني لا أرتاح في العمل تحت إدارة الغرياني.

– هو أشد المتحمسين لك.

– وأنا سأكون عند حسن ظنه.

طفرة أبعدتني عن مراوغات أولاد الشوارع الذين يحاولون دخول السينما بالزوغان وعن مناكفات الجمهور داخل الصالة فما

(1) البوليط: تذكرة السينما

أن تحاول منع أحدهم من التدخين حتى يبادرك بالسب:
- "برة يا مصري يا ميبون"

ووظيفة المحصل مريحة وراقية ويساويك في الدرجة مع المدير فعند غيابه أو ذهابه إلى مشوار تتحول الإدارة إلى المحصل. وهكذا كنت أقوم بعملي وعمل الغرياني في معظم الأوقات كان المدير بعد تسليمي حصة اليوم من التذاكر يختفي تماما ولا يعود إلا في موعد قفل شباك التذاكر لاستلام الإيراد.. وقد لاحظت ثلاثة أمور غريبة ومريبة في المسار اليومي للعمل:

أولها أن الغرياني يسلمني التذاكر في رزمة محكمة الربط بالأستك وينبه عليّ بشدة عدم فك الرباط أو العبث بها لإلقاء الكعوب المنتهية.. لأن كل مائة تذكرة لها كعب والربطة تحوي عشرة دفاتر فيكون المجموع ألف تذكرة وحين أسأله عن السبب يقول موضحاً:

- الكعوب لكي أتحاسب بها لأن التذاكر ملخبطة.
- ولماذا لا تكون الأرقام مسلسلة حسب أختام الضرائب.
- هذه لخبطة من الضرائب نفسها.

وثاني هذه الأمور هي مسألة لخبطة التذاكر فهي تقفز فجأة من الآحاد إلى مئات الألوف ولأن التذاكر المسلسلة المدموغة من الضرائب في عهدة الأستاذ خالد تحرجت من سؤاله.

ثالث هذه الأمور المحيرة أن الغرياني كان يتعمد الاختفاء ثم يأتي مسرعاً ويضع منديله أمام الطاولة قائلاً:

- دير الواحد هنا.

- مش هنعد يا حاج.
- مافيش وقت.. أنا مستعجل.

وهكذا كان يتسلم الإيراد بشكل بدائي لم أر له نظيراً في الدنيا وكان دائماً ينبه عليّ بعدم إحصاء الوارد "العد بيقلل البركة" وكأننا بنبيع البطاطا في سوق الخضار فأقول له ضاحكاً:

- بركة إيه يا عم محمد.. دي تذاكر محسوبة واحد + واحد.

ورابع هذه الأمور المحيرة وأهمها بالنسبة لي تتعلق بالزيادات الموجودة في الإيراد.. أحياناً تصل إلى ثلاثين ديناراً.. أحصيت الوارد وأعرف مبلغ الزيادة التي تأتي من عدم وجود العملات الصغيرة لرد البواقي والجمهور الليبي سخي ومتسامح للغاية لأن ثمن التذكرة هي واحد وثلاثين قرشاً وعندما أرد لأحدهم خمسة قروش صحيحة يتساءل بكل طيبة:

- وأنت ليش تخسر قرش من جيبك.
- الله غالب.. ما عنديش فكة.
- خلاص أنا مسامح في حقي.

لكن الأجانب دائماً لا يتنازلون عن حقوقهم وخصوصاً الباكستانيين والهنود والتوانسة والمصريين.. يحصلون على خمسة قروش كاملة أو يقفون بجوار الشباك حتى تتوفر الفكة. ولم أكن أمد يدي لهذه الزيادات وأتركها مع الإيراد. وأظل قلقاً حتى صباح اليوم التالي حين يأتي الغرياني لتسليم الإيراد للأستاذ خالد.. وبعد عدة مناورات وملاحظات وأسئلة غريبة يأتيني متصنعاً الفرح والسعادة قائلاً:

- يا إدريسنا والله إنك تريس (1) رغم إنك مصري.. حسابك مظبوط وفي جوز دينار زيادة.. هاك إشري (2) دجاجة.. مبسوط؟
- الحمد لله وإحنا هننهب.
- "يا ابن الحرامية.. لهفت ثمانية وعشرين جنيه.. حار ونار في جتتك"

أقول هذا لنفسي وكنت أظن بقائي في هذا الموقع مرهون باستيلاء الغرياني على الزيادات.. لكن المسألة كانت أكبر وأخطر وذات يوم حاولت فك طلاسم ظاهرة من هذه الظواهر، فقمت بتسليم الإيراد بعجز بلغ عشرة جنيهات.. فجاء الغرياني في الصباح غاضباً وهاجمني بشدة:

- شني يا إدريس أنت كنت نايم ولا شارب بوظة؟
- في منتهى اليقظة.
- يبقى في حد جلس بحداك وسرقك.
- في إيه يا عم محمد؟
- عندك عجز كبير!
- كم؟
- مائتا دينار؟!

قلت فزعاً:

- مش معقول؟
- هادا اللي صار.
- والعمل؟
- دبر رأسك.

---

(1) تريس: رجل ، (2) إشري: اشتري

– خلاص إخصموه بالقسط من المرتب.

اجتمعت اللجنة الشعبية بسرعة غريبة وقررت خصم المبلغ على شهرين فقط ورغم أن الأستاذ خالد تدخل بنص القانون الذي لا يسمح بالخصم بأكثر من ربع المرتب إلا أن رد مصطفى بيت المال كان جاهزاً:

– علشان يصحصح ويخلي باله من شغله!

رد الفعل كان شديداً وقاسياً. قلت لنفسي:

– "ربما بعد هذه الواقعة يتسلم الإيراد بعد العد والإحصاء" لكنه استمر في "استهباله".

فقررت دخول عش الدبابير وفك طلاسم الظاهرة الأخطر وهي عملية لخبطة التذاكر. انتهزت فرصة غياب الغرياني وقمت بفك الربطة.. ويا لهول ما وجدت جميع التذاكر ذات الأرقام الفلكية غير مدموغة بختم الضرائب وهذا معناه أنها مزورة ومدسوسة فألقيت بالكعوب المنتهية على الأرض وجلست هادئاً في انتظار العاصفة ولما جاء الغرياني ولاحظ انخفاض منسوب الربطة صرخ فزعاً:

– إيش درت يا زامل؟ (1)

– الربطة عالية وتعاكسني في قطع التذاكر.

– باهي ووين الكعوب؟

أشرت له على الأرض فجمعها بسرعة وصرها في منديل وانصرف وهو يسبني ويسب كل "الزوامل".

وضحت الأمور فهؤلاء اللصوص يقومون بنهب يومي منظم للمؤسسة تطبيقاً لمقولة الغرياني "هادا رزقنا"، وبدأت أشك في

(1) الزامل : الشاذ السلبي أو الإيجابي

الأستاذ خالد وحتى أتأكد سألته بشكل غير مباشر عن إيراد الأمس.. رد وهو ينظر لي نظرة غريبة:

– كالعادة لم يزد عن ربعمائة دينار رغم الزحام الملحوظ.

– وكيف تفسر هذا؟

– يبدو أن الدخول المجاني أكثر من المسموح رغم محدودية البطاقات المجانية التي وزعناها هذا العام.

– هذه ظاهرة محيرة!

– ممكن عمال الأبواب يتعاملون مع الجمهور لحسابهم الخاص!

– ربما..!

واجهت الغرياني.. سألته حلاً لمسألة لخبطة التذاكر وخصوصاً غير المدموغة من الضرائب، فرد بوجه مكشوف وتهديد مبطن:

– عندك صغار ولا لأ؟

– عندي أماني وأسامة وزوجة.

– وتريد العودة إليهم بالسلامة.

– هذا أمل كل أب مغترب.

– وليش جاي ليبيا.

– علشان أشتغل وأربيهم كويس.

– باهي.. لا تتدخل ولا تسأل واعمل في صمت.. شن قلت؟

– فهمت يا عم محمد..

في اليوم التالي رد لي الزيادات بالكامل وكان يوم عيد والزحام كثيفاً وبلغت الزيادة خمسين ديناراً وقال لي باسماً:

– هيكي مبسوط ولا شنو.

- نعمة.. الحمد لله.

هي رشوة مقنعة. لكن الذي سألني عن الإيراد.. كان الأستاذ خالد فقلت له:

- ألف دينار.. أتشك في شيء؟

- سأعرف وأتأكد اليوم ولا تقل لهم بأنني سألتك عن الإيراد.

في مساء نفس اليوم سألني وهو في حالة توتر شديد:

- ما مدى تعاونك معهم؟

- في حدود عملي.

- ألم تكتشف شيئاً؟

- عرفت منذ وقت لكني خفت منك ومنهم.

- مني أنا؟

- التذاكر المدموغة في عهدتك.

- وباقي التذاكر عندهم في المخازن.

- وكيف نتصرف الآن وقد عرفنا أبعاد المؤامرة؟

- هؤلاء اللصوص بنوا خطتهم على أساس وجودنا معاً.. أنت المحصل وأنا المحاسب وعند وقوع الخطر سيضعوننا أمام المدفع.

- هل نرحل أم نبلغ عنهم السلطات؟

قال خالد بعد تفكير عميق وتأن:

- جئنا لنعمل ونحن في حاجة ماسة للبقاء.. وإذا أبلغنا عنهم نخسر وإذا رحلنا نخسر ولن يمنحونا تنازل للعمل في مكان آخر.

- والحل؟

– نبقى ونقاوم..

ولبثنا ليلة كاملة نرسم خطة الصمود والتحدي.

زوجتك في أحضان العمدة



كانت الخطة التي رسمناها و "ما تخرش المية" كما يقولون لمواجهة هذه المافيا بسيطة ومعقدة وتحتاج في تنفيذها إلى ذكاء حاد ويقظة وكانت خيوطها الأولى تتلخص في افتعال خصومة وتشابك بالأيدي بيني وبين خالد لكي نزيل عن أذهانهم أي تصور بأننا صديقان متعاونان وبالتالي نجهل ما يمارسونه من نهب. أصابهم الفزع عندما تعاركنا وتشاتمنا أمامهم.. لكن مصطفى بيت المال أصر وتمسك بالصلح بيننا وجمعنا معاً مع أعضاء اللجنة الشعبية في "زردة" (1) خارج طرابلس في الحدائق المفتوحة. خروف للشواء وزجاجتي ويسكي نادرة الوجود وغالية الثمن. كانوا في الواقع يحاولون هتك سر هذا الشجار وهل يتعلق بهم أم أنها مسألة شخصية. خالد لا يشرب وأنا "شريب" ولي قدرة فائقة على تجنب السكر الشديد ومع ذلك تعمدت إدعاء السكر لكي أسرب إليهم ما أريد.. قلت في حالة ترنح مصطنع:

– تصور يا سي مصطفى.. خالد أفندي فاكرني سفرجي عند اللي خلفوه..

– أنتم خوت (2) يا راجل.

– بس زودها قوي علشان ساكن معاه.

– وإيش صار؟

– إذا كان بيسيب الطبق اللي بياكل فيه من غير غسيل؟

– لا يا خالد.. التعاون باهي.

– دا ناقص كمان أغسله هدومه.

---

(1) زردة : وليمة ، (2) خوت : إخوة

تدخل خالد بعد صمت طويل ليعمق الفجوة المرسومة بعناية:

– ما أنت سفرجي وأهلك كلهم سفرجية

وتوجهت بحديثي للمضيف:

– سامع يا سي مصطفى.. خلاص من بكرة أشوف لي سكن تاني.

تدخل أعضاء اللجنة الشعبية جميعاً ورد الغرياني بالنيابة عنهم:

– لو تركت الأستاذ خالد برجعك للصالة..

أضاف مصطفى مهدداً:

– وسنرفع عنك العمل الإضافي

كان هذا إصرار منهم على بقائنا معاً تنفيذاً لخطتهم الجهنمية قلت:

– خلاص يا جماعة سأبقى معه ولكنني لن أسكن معه في غرفة واحدة ولن أأكل معه في طبق واحد

نجحت الخطة فسكبت في جوفي ربع زجاجة ويسكي وبدأت أغني وأرقص وأنكت وأقبل هذا وأمازح ذاك حتى أحول الوليمة إلى هرج ومرج ولا أمنحهم فرصة لمزيد من الاستدراج. تحين خالد فرصة إقترابي منه وانشغالهم بتخاطف الكباب وقال لي هامساً:

– أحسنت.. وكفاية كده.

ورغم الوليمة والجمع السعيد استمرت خطتنا كما هي؛ قطيعة كاملة أمامهم لا نأتي إلى العمل معاً، لا أصعد إليه في مكتبه ولا يزورني حيث أعمل في البلكون صباحاً وشباك التذاكر مساءً. كانوا يحاولون بشتى الوسائل هتك سر هذه الخصومة المتواصلة بإجراء

مناورات ساذجة وعبيطة. وبمجرد
وصولي لعملي المسائي قبل خالد يحاصرني الغرياني:
- ولد النوبة شن حالك.
- والله باهي بأبرز (1)
- وولد عمك.
- ابن عمي مين دا حتة فلاح منوفي.
- باهي وشن اتغديت اليوم.
- دجاجة مشوية كاملة يا عم محمد.. كله من خيرك.
- وليش ما تاكل مع ولد عمك.
- بخيل.. بيحوش.. وغاوي جبنة وزبادي.
وعند وصول خالد يحاصر بنفس الأسئلة الساذجة والشخصية التي لا علاقة لها بالعمل..
- يا خالد أخبار القولون شنو؟
- والله تعبان يا سي مصطفى.
- نظم أكلك.
- بحاول.
- شن تاكل.
- جبنة رومي.. زيتون.. زبادي.. رز مسلوق.. بيض بريشت.
- وليش ما تاكل مع صديقك؟
- أكله مقرف.
- كيف؟
يمص أصابعه بشكل مقزز.
قلت مرة للأستاذ خالد عندما أفلت من كمين جماعي متقن:

(1) بأبرز: بصحة جيدة

- أنت ممثل بارع..

رد متباهياً:

- أنسيت من أكون؟

- أكنت تمثل من قبل؟

- هذه فطرة.. فمن هو الذي ضحك على إسرائيل من الحكام العرب.

- السادات.

- وهو بلدياتي.

ضحكت لأن الأستاذ خالد كان ينبغي ضمه إلى وفد المفاوضات فهو أكثر قدرة على التمثيل من بلدياته.

وعندما يحتارون في أمرنا يقومون بغارات ليلية على مقر سكننا بحجج وأعذار واهية وعبيطة فنعلن حالة الطوارئ؛ أنسحب لمقر نومي في غرفة صغيرة كانت مخزناً للكراكيب ويستقلبهم خالد وحين يسألون عني يقول:

- من التعب بينام قتيل.

- يعني ما في سهر ولا حكاوي؟

- مش لمّا أشوفه الأول.

لكن علاقتي بدأت تسوء بالغرياني لأن جميع محاولاته باءت بالفشل ويبدو أنه أجرى اختبارا ما لم انتبه له من زحمة العمل وهذا أمر متوقع فمهما اتقنا التمثيل وناورنا فلابد من ثغرة. فبدأ يضيق عليَّ الخناق في محاولة لدفعي على الانفجار ونجح.. لأن محاولته كانت مقززة تمس شرفي وتدفع أذكى الرجال للانفجار..

سألني أمام جمع من العمال:

- قد إيش ليك في ليبيا؟؟

- عام ونصف.

- والمرة إيش تدير في غيابك؟

- تنتظرني كأي مسلمة!

- تحلم.. تجدها الآن في أحضان العمدة!

قلت له بغضب شديد ينذر بانفجار وشيك:

- عيب عليك يا غرياني.

- عيب شنو.. نساوين مصر كلهم نايمين مع العرب في الشقق المفروشة.

- قلت لك عيب.

- اسأل أي واحد سافر مصر.

- ماشي.. قلت مراتي مع العمدة ودا ابن عمي.

- وإيش الفرق؟ كله زنا ومسخرة.

- لأ هناك فرق!

- كيف يعني.

- مش نايمة مع واحد معفن زيك.

- أنا معفن يا قواد.

- معفن وابن وسخة يلعن ... أمك.

- شاهدين أهه سب أمي الحاجة.. والله لأحبسك يا قواد.

- أحبسني وأنا هقول للزعيم على كل حاجة.

بصقت في وجهه وقذفته بالمكنسة وانصرفت غاضباً.. فلم يعد لي مكان مع هذا القبيح.. قررت السفر وعرفت خالد ذلك.

اجتماع موسع



دستة أشرار يجتمعون يومياً على مدى ثلاثة أيام للوصول إلى قرار موحد بشأني وكانت الخيارات أمامهم كثيرة اختلفوا حولها: الترحيل بالختم الأحمر، السجن بتهمة سب أم الغرياني، الاغتيال. ولم يتفقوا على شيء محدد وكانوا يسربون للأستاذ خالد بعض الآراء في محاولة لإرهابه وتحييده وكسبه لصفهم وكل همهم قد انصب على معرفة ما الذي سأقوله للزعيم بشأن الغرياني.. وحينما يحاصرون خالد يقول لهم بلا مبالاة

– ما عنديش فكرة.. هاتوه واسألوه.

وكنت في هذه الأيام مرعوباً ولا أغادر المسكن على الإطلاق وكنت على يقين تام بأن مجرد خروجي من باب المسكن سأواجه مصير الحاج عبد الله.. وأن سيارة ما تقف في انتظاري على ناصية الشارع لتصفيتي جسدياً وهذا هو الحل الوحيد المتاح أمامهم.. عندما نقلت هواجسي للأستاذ خالد رد بثقة:

– ما يقدروش.. معايا مستندات توديهم حبل المشنقة

ففي هذه الآونة كانت اللجان الثورية تقوم بتصفية المنحرفين في الشوارع والعقيد بنفسه استرد مدير الخطوط الجوية الليبية من المجال الجوي اليوناني وكان هارباً بالغنيمة وأعدمه قلت لخالد متوجساً:

– قد يصفوننا معاً.

– لا شكوك لديهم نحوي.

– متأكد.

- يا ابني دا إحنا اللي ضحكنا على بيجن انت ناسي ولا إيه؟

في اليوم الرابع قرروا استدعائي فذهبت إليهم بسيارة ابن عمته الدكتور مصطفى وهو زوج ليبية في الخارجية.. كانوا يعرفون هذا ويعملون حسابه وكانت هذه لفتة ذكية من الأستاذ خالد لتخويفهم وإيقافهم عند حدهم..

الاجتماع كان في الطابق الرابع وجاء مقعدي بجوار نافذة مفتوحة على الشارع والإسهال الشديد الذي عانيت منه قد توقف قليلاً وكنت على يقين بأنني لو بحت لهم بالحقيقة.. سيلقون بي من النافذة ويزعمون بأنني انتحرت.. وكنت قد جهزت نفسي للمناورة والخديعة بالاتفاق مع الأستاذ خالد..

وقال مصطفى بيت المال:

- إدريسنا.. تذكر بأنني الذي وظفتك في المؤسسة.
- وأحفظ لك هذا الجميل وأفديك برقبتي.
- الله عليك.. والله تريس.
- ودائماً أتحدث عنك بكل خير.
- وأنا أحب أهل النوبة.
- وأنا ومعي كل المصريين هنا وهناك نبادلك نفس الشعور.
- وتوا تقول لي شن بينك وبين البسطردي (1)
- تقصد من؟
- الزفت الغرياني.
- خير.. كل خير طبعاً.

---

(1) البسطردي : ابن الحرام بالإطالية

- يعني ما في مشكلة؟؟
- ربنا ما يجيب مشاكل.
- باهي.. وليش تعاركتم.
- طعنني في شرفي.
- وانت شتمت أمه وبصقت عليه.
- كده خالصين.. حبايب وقشطة يا لبن.
- وإيش تقول للزعيم عن الغرياني؟؟
- كلام خطير !
- خانب ! !
- أخطر
- شن هو اللي أخطر من الخنبة؟! (1)
- في !
- إيش في؟
- هذا سر وسأفشيه لك على إنفراد.
- قل أمامهم جميعاً.. فنحن جميعاً أخوة.

انحنيت نحو أذنه وقلت هامساً:

- بيشتم الزعيم.

بغتة.. انفجروا جميعاً ضاحكين.. ضحك هستيري استمر لدقائق وحين توقفوا قال مصطفى بيت المال بترق:

- هادا هو.. باهي يا سيدي.. ظبور أم الزعيم.. هيكي باهي.

وردوا خلفه جميعاً:

- وأم الزعيم.

وتساءل بيت المال بعد أن هدأت النفوس واطمأنت:

---
(1) الخنبة: السرقة

- وتوا شنو رأيكم يا جماعة؟
- الرأي للغرياني.

قام الغرياني. تقدم نحوي ماداً يده.. تصافحنا وتباوسنا وأدلى برأيه في المسألة:

- إعطوه بعض الحاجة وخلوه يمشي لصغاره وأنا بريئ من دمه.

نادوا على الأستاذ خالد فجاء ومعه دفتر الشيكات وكأنه كان يتوقع هذه النهاية.. قال بيت المال:

- يا خالد دير له شهرين مكافأة وكذلك مكافأة نهاية الخدمة وتذكرة الطائرة ومن عندنا يا سيدي ألف دولار، ثم ربت على كتفي وتساءل:
- وتوا كيف يا إدريس.. مبسوط؟
- جدا وأعدك بأن المسألة قد انتهت. ولكن أرجوك توصلني حتى المطار.
- ولن أغادر حتى تركب الطائرة.

وأنا في الطريق إلى مبنى الجوازات والهجرة للحصول على تأشيرة الخروج ومعي الطويبي مندوب العلاقات وأحد أهم أصحاب رأس المال وكان سعيداً ومنشرحاً.. يغني وينكت.

لقد فازوا بالغنيمة وخسرت، أقول لكم الحق.. كان الغيظ يملأ صدري.. فهؤلاء البدو هزموني والنهاية ليست لصالحي على كل حال وفي حالة تشبه انفصام الشخصية وانعدام التوازن قررت المغامرة بحياتي ومستقبل أسرتي.

- تعرف يا طويبي.

- شنو؟
- أنا لم أقل للجماعة عن الحقيقة.. خفت منهم.
- وشن الحقيقة؟
- ستعرفها عندما أصل إلى مطار القاهرة وأبرق للأخ العقيد بشأن الغرياني ومن معه
- أشكون معاه؟
- الأسماء والأدلة كلها معي.

وإذا بالطويبي الذي كان يغني يحتبس صوته ويفرمل بقوة ويتراجع بالسيارة عائداً بي إلى المؤسسة وقال مبرراً سبب العودة:

- يا أخي هبلتنا نسيت جواب الشركة للجوزات.

ويبدو أنهم اتخذوا قراراً سريعاً بشأني.. جاءني مصطفى بيت المال وأبلغني مضمون القرار:

- الإخوة كلهم يبوك (1) معاهم لأنك خبرة وأمين.. سنبعدك عن الغرياني ونغير لك وظيفتك وتعيش بيننا معززاً مكرماً.

(1) يبوك: يريدونك



محاولة فاشلة لغسيل المخ

وظيفة جديدة أنشئت خصيصاً لي ولم تكن موجودة من قبل لإبعادي عن الغرياني وإزالة أي انطباع سابق عن ممارساته ومديري الجديد هو مختار الكاديكي ومعنا ميكانيكي مصري ومهمتنا هو إتاحة الفرصة لنظائرنا للحصول على أجازاتهم الأسبوعية.

الكاديكي شاب متميز، مرح، ابن نكتة، وله جولات وصولات في مصر ومتخصص تعامل مع المصريين. يحفظ بعض الأشعار ومدمن خمور.. ودائماً معه زجاجة خمر في السيارة يسب الزعيم علناً بسبب إغلاقه للبارات. كان يمر عليٌ يومياً لاصطحابي إلى العمل ويعيدني ليلاً لمسكني.. وفي الطريق كان يحاول استدراجي لموضوع الغرياني ويسبه لتسهيل الأمور لي:

- الغرياني هذا واحد بسطردي وكان دائماً ينقل عنا للجاعوني قبل الثورة " لانتنا " (1) من نوع قذر.

لا أرد وأنظر لجهاز التسجيل المفتوح بحذر وتوجس.. فيضيف:

- وضيع وواطي ولد قحبة وكان يمسح حذاء الجاعوني.

التزم الصمت.. فيقدم لي كأساً كبيراً من الويسكي لفك عقدة لساني.. أعرف هذا وأتحسب له فهو من أعضاء اللجنة الشعبية والرأس المفكر بينهم بسبب ثقافته وعلمه وعلاقاته مع كافة المؤسسات الأخرى الشبيهة ورئيس لجنة انتقاء الأفلام للعرض ويسافر إلى إيطاليا ومصر للتعاقد مع المنتجين وكان سعيداً لأنه نجح في جلب فيلم " المذنبون ".. ثم فجأة وبدون مقدمات:

(1) لانتنا: إيريال لاقط " يعني مخبر "

– على فكرة صديقك هو من يعاون الغرياني على الانحراف.
– صديقي؟؟
– خالد.. ألا ترى كيف ينفق ببذخ مع أن راتبه متواضع.
– لا أظن.
– أنت على نياتك.. لقد اشترى من خلف ظهرك سيارة.

محاولة للوقيعة لأني أعرف قصة السيارة.. فهم من قدموا له ضمان للبنك لقرض طويل الأجل وبدون فوائد ووعدوه بدفع قيمة الأقساط بين وقت وآخر وحتى يضمنوا ولائه وسكوته لو عرف أو شك في شيء.. فأقول ضجراً:

– بلا غرياني بلا قرف.. غير اللون بقى!
– رد بالك (1) منه.. لقد انضم للجان الثورية ومعه مسدس حتى يحمي نفسه منك ومنا.
– ولماذا أنتم أيضاً.. أليس عضواً في اللجنة الشعبية.
– لكنه خائب.
– لا علم لي بما يمارسه من سرقات.
– باهي.. وشن تقول للزعيم عنه؟
– انس هذا الموضوع.. لقد نسيت.. تسمع آخر نكتة عن السادات.
– قل..
– هي أحدث نكتة.
– يا أخي قل شوقتني.
– " يشيعون في مصر أن الرئيس السادات كان يقوم بافتتاح كوبري مازال تحت الإنشاء وعندما وصل للحافة فقد توازنه

(1) رد بالك : خلي بالك

وكاد يقع في النيل فاندفع مواطن بحماس شديد وأنقذه ثم مضى في حال سبيله وعندما أفاق السادات من هول الصدمة وتأثير المخدرات.. سأل عن المنقذ وأمر بإحضاره فوراً.. صافحه وشكره وسأله:

– لماذا انصرفت بعد أن أنقذتني وأنقذت مصر من فراغ سياسي

– هذا واجبي الوطني وأديته يا بطل العبور.

– ماشي اطلب ما تشاء؟

– شكرا يا ريس.

وأصر الرئيس على منحه ما يشاء وهذا أمر رئاسي، فقال المواطن بتواضع وخجل:

– إذا كان الأمر كذلك أريد دراجة مشلولين.

– لمن وأنت في صحة جيدة.

– لأبي.

– أهو مريض.. دعني أرسله للخارج على نفقتي.

– كان بصحة جيدة وعندما سمع عن إنقاذي لسيادتك أصيب بالشلل "

قهقه الكاديكي بشدة وكاد يفقد السيطرة على المقود ويصطدم بالطوار.. وبعد أن تماسك قال معلقاً..

– أنت شيطان.. هذه النكتة كانت على عبد الناصر.

– بل هي تقال مع كل رئيس جديد.

– باهي وأنا سأحولها على الزعيم لكن بطريقتي ولغتنا.

كنا نتعامل مع التذاكر المدموغة والمسلسل الرقمي المتدرج وفي نهاية اليوم يحصل على الإيراد الفعلي ويترك لي البواقي دون

مساس وبسبب عفته كنت أساهم بهذه البواقي كل فترة في ثمن زجاجة ويسكي وأحياناً كان يذهب بي إلى بيته وبين أسرته أيام الراحة وهي ثلاثة أيام في الأسبوع وأكلت عندهم كل الأطعمة الليبية.. الكسكسي والبازين والبكبكة. أما لماذا لم يقوموا بتصفيتي ويرتاحوا مني ربما راجع بسبب علاقتي بالأستاذ محسن الخياط أو خوفاً من الدكتور مصطفى ابن عمة الأستاذ خالد وزوجته الليبية بدرجة سفير في الخارجية وربما خشية من عقاب الله أو لأنهم لم يجدوا مني تصرفاً يسبب لهم الضرر.. مجرد تهديد أجوف مس الغرياني من بعيد. لكنهم كانوا يراقبونني حتى في أيام الراحة ويوماً دفعني الحنين لرؤية محسن الخياط وعلى ناصية شارع مبنى الإعلام إذا بسيارة تعترض طريقي ويطل من نافذتها مصطفى بيت المال كالعفريت..

– وين ماشي.. تعال نريدك في مشوار.

أصابتني دهشة فاندهشت. ركبت بجواره فاتجه خارج طرابلس وتوقف أمام محل جزارة في قرية نائية الليبيون في العادة لا يستحسنون تناول لحوم سوق طرابلس سواء المجمدة منها أو المذبوحة محلياً من العجول والخراف المستوردة وإنما يشترون متطلباتهم من القرى حيث لحم الجمال "العكود" (1) والأبقار المعلفة في المزارع المحلية ولحم الضأن المهرب من مصر ويسمونها "أبو ليـَّة" بينما الخراف الرومانية ذات الذيول القصيرة يسمونها "مازجري"(2).. أما نحن ومعنا الأجانب لم يكن هذا الترف من أحلامنا ونبتاع متطلباتنا من السوق حيث اللحوم المجمدة والدجاج

---

(1) العكود : الصغير ، (2) مازجري : براني

المجمد بأرخص الأسعار.. بينما لحوم القرى لها أسعار خاصة..

بعد أن اشترى بيت المال خزين الشهر من اللحوم المتنوعة سألني:

– وأنت إيش تبي؟

قلت للجزار:

– كيلو كبدة من فضلك وأفضل العجالي.

ضحك الجزار بشدة وأضحك معه مرافقي وتساءل:

– أنت مصري؟

– وما علاقة جنسيتي بالكبدة؟

– هنا يا شاب مافيش بالكيلو

– ماشي هات نص كيلو.

واصل الضحك، اغتظت لأنني لم أقل نكتة!

– بتضحك على إيه يا حاج؟

– هنا بالطرف أو الهبرة.

– يعني إيه؟

– ترفع كبدة العجل كله.

– وأنا عندي مطعم؟

تدخل بيت المال:

– إعطيه الكبدة كلها والحساب عندي.

اعترضت:

– لا يا أخ مصطفى ليس لدي ثلاجة للحفظ.

– باهي يا سيدي.. أعط خالد والإخوان الذين معكم في طريق العودة.

سألني عن وجهتي عندما قابلني.. قلت له اشتقت لصديقي محسن الخياط

- دير بالك محسن هادا لانتنا!
- لصالح من؟
- لصالح الزعيم وضد المصريين الذين يعملون معه وكل الصحفيين الذين تم ترحيلهم من ليبيا كان بوشاية منه
- لا أظن
- لقد بصرتك

عندما التقيت بمحسن الخياط بعد ذلك بسنوات في ندوة بنقابة الصحفيين ونقلت له القصة رد ضاحكاً:

- قالوا لي عنك نفس القصة.. حين سعى أحدهم للقائي وحذرني منك.
- اتعرف اسمه؟
- اسمه غريب بعض الشيء.. الكلب.. الكلاف.. الكرة.
- الكاديكي.
- نعم مختار الكاديكي.
- فهمت ولماذا كانوا يحاولون إبعادنا في نظرك.
- هذه طبيعتهم.. لا يسعدهم وجود صداقة بين أجنبيين.
- ليس الأمر كذلك.
- ألديك تفسير آخر.
- الانحرافات والفساد.

وحكيت له قصة المؤسسة بعد تطبيق قانون شركاء لا أجراء فقال مستهيناً:

– كل ليبيا هكذا وحتى وزارة الإعلام.. الميزانية ضخمة جداً ولكنها تتسرب لجيوب القلة..



الزعيم يحلق شعره



جاء مختار الكاديكي متأخراً عن موعده المعتاد وقال مبرراً:

- كنت أسمع خطاب الزعيم.. أسمعته؟
- كله
- وما رأيك
- استهله بكلام فارغ وعبيط وألغى به محلات الحلاقة وكان الزعيم قد قال: " وتوا ليش حسان (1) يا جماعة كل واحد يحسن (2) لروحه "

قال الكاديكي بدهشة:

- بعد خطابه جربت الحلاقة لنفسي وفشلت.. الذقن ماشي.. العانة ممكن.. تحت الإبط سهل للغاية.. لكن رأسي كيف يعني.. هذا جنون.. منتهى الجنون
- وما تفسيرك لهذا؟
- ربما حلم بأن الحلاق ذبحه.. هو رجل وسواس وخواف مثلما خاف من الرجال وجعل كل حرسه من الفتيات..

بعد خطابه التاريخي الهام.. قامت هوجة لسحب تراخيص محلات الحلاقة وخصوصاً في الشوارع الرئيسية واستمرت في تواجدها في الأحياء الشعبية بشكل سري مع عدم منح الإقامة للحلاقين الجدد وترحيل من تنتهي إقامتهم وذكرني هذا بشطحان الحاكم بأمر الله الذي منع أكل الملوخية.. حكام ظرفاء يضحكوننا بشطحاتهم، وخلال شهر كانت شعور الشبان تتجاوز الكتف. ثم

---

(1) حسان: حلاق (2) يحسن: يحلق

فجأة عاد بحديثه للمحور الرئيسي.. الغرياني..

- شن حال البسطردي معاك؟
- كل واحد في حاله
- في أي وقت يتحرش بك أو يدس من ينوب عنـه.. ابـلـغـني عنه.
- وماذا بيدك وهو في اللجان الثورية كما قلت لي؟
- والله لأخليه يرقد في الحوش مثل الحاج عبد الله..

فلتة لسان ندم عليها فصمت ولم أشأ بدوري النـكـش في هـذه المنطقة المسكوت عنها.

رص البطمة



الأطفال الذين يحملون الحجارة وأكياس القاذورات احتلوا مداخل الشوارع والحواري والأزقة وحيث يقطن المصريون ضربوا حول مساكنهم حصاراً وتمادوا فلطخوا الأبواب بالأوساخ ثم صاروا يتسلقون أسوار الأحواش ويتبولون من فوقها على كل من يخرج من غرفته لقضاء الحاجة أو الوصول إلى المطبخ. حوشنا تحول إلى مأوى الهاربين من مساكنهم طلباً للأمان ولا أمان لأن مسكننا كان تحت بلوكات المساكن الشعبية التي يقطنها جنود الجيش والشرطة والنساء يشاركن الأطفال في إلقاء الحجارة علينا. الذي يريد الخروج من غرفته إلى الحوش المفتوح إلى السماء كان يضع على رأسه حلة أو طبق بديلاً من الخوذة تقيه من رشق الحجارة.

كانت الحرب قد اندلعت على الحدود والدبابات المصرية اجتاحت مدينة مساعد وتوقفت عندها على بعد كيلو مترات من الحدود ولم تتوغل بينما الطائرات المصرية قصفت القاعدة الجوية في طبرق التي انطلقت منها طائرات الميج الليبية قبل اندلاع الحرب واخترقت المجال الجوي لمصر وقصفت معسكرات الحدود في حين أن الجيش الليبي كان قد أسر بعض عساكر الحدود المصرية وعرضهم مكبلين على شاشات التلفاز فلم يجد السادات بدا من الرد السريع الحاسم ويبدو أن قصف قاعدة طبرق كان موجعا ومؤثرا ومدمرا فقد أصاب الجنون إذاعة ليبيا فبدأت تذيع بيانات كاذبة على طريقة أحمد سعيد وصورت المسألة كان الجيش يزحف إلى

ليبيا عبر عدة محاور مستهدفا الثورة والثروة فصار الشارع الليبي كله معباً ضدنا نحن العزل فصرنا هدفا لنقمة شعبية منذ اليوم الأول للقتال وكنا نتداول أمر هذه المصيبة التي حلت بنا وطريقة مواجهة أطفال الحجارة وكان سكان المنزل والضيوف من المنايفة كلهم يؤيدون السادات في عملية تأديب الزعيم لدرجة إقتلاعه من الحكم. كنت صامتا وحزينا وأرى المسألة خلاف ذلك.. وعندما سألوني عن رأيي.. قلت بصراحة ووضوح..

- اختلف معكم تماما فالسادات هذا الذكي، الخبير، العاقل الذي امتص غضب الملوك والأمراء وكسبهم في صفه وضحك على إسرائيل بتلك الزيارة.. هذا الرجل الأسطورة والذي لا نظير له بين الحكام العرب.. هذا الرجل لم يتحمل شقاوة طفل وعبثه.. صحيح إن شقاوته تجاوزت الخطوط الحمراء وعبثه فاق كل تصور لكن هذا كله لا يبرر القتال فلابد الآن وحالاً أن يتوقف هذا العراك بين الإخوة.

رد أحدهم بحدة:

- نسينا إنك ناصري.
- لست كذلك ولكني موضوعي النظرة.
- من يساكننا ينبغي أن يكون معنا.
- لست معكم ولا ضدكم.. يا جماعة الكاتب هو ضمير الأمة.
- وهل تعجبك الإهانات التي نتلقاها منهم حتى قبل الحرب؟
- من لا تعجبه الأحوال فليغادر.

تدخل أحدهم بطريقه طفوليه:

- إحنا قاعدين على قلوبهم.
- إذن تحملوا.

وحاول أحد الضيوف تحريضهم ضدي:

- أنت تخرج وتعود والأطفال لا يعترضون طريقك.. ما معنى هذا؟

تدخل خالد لحمايتي:

- المسألة بسيطة جداً كل الأطفال يعرفونه من خلال ترددهم على دور السينما ولونه الأسمر وإجادته للهجة الليبية يحميانه والأهم من هذا كله أنه لا يرتدي الفانلة. "المونتجوه" (1) مثلكم وهو يرتدي زياً شبيهاً بهم.. هذه هي المسألة.

كان أول شيء يفعله المدرس المصري عند وصوله إلى ليبيا شراء فانلات المونتجوه الفرنسية دون كل الجاليات الأخرى ولذلك كان هذا يفضح جنسيته وبالفعل الأطفال لم يتحرشوا بي ويظنون أنني سوداني أو فزاني وكانوا ينادونني بـ " يا عبيِّد " وهو تصغير كلمة عبد من باب التدليل لا السبة العنصرية. حتى مختار الكاديكي كان غاضباً منا فكف عن المرور عليّ طوال فترة الحرب، قابلني الغرياني على باب المؤسسة وتساءل في غضب:

- سمعت الإذاعة يا إدريس؟
- وماذا قالت؟
- الجيش المصري قام بهجوم واسع النفاق.

ضحكت رغماً عني..

- عليش تضحك؟

(1) المونتجوه: فانلة من الحرير

- النطاق يا عم محمد مش النفاق.
- وشنو الفرق؟
- النطاق يعني الحيز والنفاق معروف وقانا الله وإياك شره.
- فلسفة كداية.
- هذه لغة يا عم محمد وليست فلسفة.
- المهم ردوا بالكم من الشباب الليبي.
- نحن نعمل ولا شأن لنا بمن يتقاتلون.
- كلكم طابور خامس واستخبارات.
- رجعنا للاستفزاز.
- نحن في حرب يا خوي.
- هم ولسنا نحن.
- إحنا كلنا مع قائد الثورة.
- لقد تصالحنا يا غرياني.
- وما في القلب في القلب.
- وأنت قلبك أسود بقى؟
- مثل سواد وجهك ووجه السادات.
- مقبولة منك.
- توا تشوفوا إيش يصير لمصر لما الزعيم "يرص البطمة" (1)

وحكاية البطمة التي يتمنون من الزعيم رصها خلفيتها أكذوبة كبيرة عاشوها بعد آخر استعراض للجيش في احتفالات الفاتح فعندما مرت أمام المنصة منصات إطلاق صواريخ أرض أرض وصفها المذيع بأنها الصواريخ العابرة للقارت وتستطيع الوصول إلى أي مكان في العالم بينما الحقيقة أن مداها لا يزيد عن مائة وخمسين

1) رص البطمة : الضغط ع الزرار

كيلو فلو أطلقت من طبرق ستسقط في السلوم وعندما انتهت الحرب ولم تنطلق هذه الصواريخ أصيبوا بإحباط شديد ولمّا وصلتهم أنباء عدد القتلى من طلاب الكلية الجوية كادوا ينتحرون غيظاً واكتشفوا أن زعيمهم فشّار كبير من طراز أبو لمعة المصري.



فروخ الحجارة

كثف أطفال الحجارة غاراتهم العدوانية على مساكن المصريين وأضافوا للحجارة مبتكرات جديدة مثل أكياس البراز وروث البهائم والماء الساخن المغلي وأصيب عدد كبير من المصريين بجروح وكدمات رفضت المستشفيات استقبالهم وعلاجهم ووصلتنا أنباء غير مؤكدة عن مصرع بعضهم في القرى البعيدة.. وكانت الحملة شديدة وقاسية في اليوم الأول واستمرت حتى بعد توقف القتال لأن النفوس كانت مشحونة وكان الأطفال يتباهون بعدد الذين تصيدوهم.

وكان أحد الأطفال قد تشكك في جنسيتي فدنا مني وسألني بحيرة:

– أنت شني يا شاب؟

– بني آدم كما ترى.

– قصدي من أي البلاد؟

– ولد بلاد (1)

– ليبي يعني؟

– مخلط.

– كيف؟

– أبي من فزان وأمي مغربية.

اقتنع وانصرف.. لكن طفلاً شقياً كان يتابع الحوار.. فحاورني حتى وجد الثغرة التي يبحث عنها في لهجتي.. فقال مستهجناً:

– والله العظيم إنك مصري ميبون.

– كلنا إخوة.

---

(1) ولد بلاد: مواطن ليبي

فرد متهكماً:

- إخوة؟!

ثم ابتعد قليلاً والتقط حجراً صوبه نحوي بدقة فأصابني في جبيني وركض هارباً. دخلت أول صيدلية في طريقي. تساءل الأجزجي:

- فروخ (1) الحجارة.. والله إنهم شجعان.
- هذا حقهم في الغضب.
- لكن أنت سوداني.
- لا يفرقون.

ضمد جرحي قائلاً:

- لو كنت مصري ما عالجتك.. اللجان الثورية تمنع تقديم أية معونة لهم.

وأنا أجلس خلف شباك التذاكر جاء أحد المدرسين الضيوف عندنا وكان غاضباً لأن طفلاً غبياً تسلق السور وبال عليه وعندما ذهب إلى الشرطة شاكياً صرفه الضابط ساخراً:

- "شوية كان مفروض أكثر من هيك"

وسألني حلاً لهذه المضايقات. لفت تحاورنا باللهجة المصرية نظر شاب كان يقف بجواري فأشار إلى جبهتي المصابة متسائلاً:

- شن هادا؟
- وقعت من الحافلة.
- وأنت من وين يا شاب؟

حاولت التحايل عليه لأن طريقته في الأسئلة توحي بأنه شرطي سري أو من اللجان الثورية لأن التعليمات كانت قد أصدرت بإبعادنا عن مواقع الاحتكاك بالجماهير خوفاً علينا ومنا. قلت:

---

(1) فروخ: الأولاد

- نوبي.
- وإيش النوبة هايدي دولة جديدة؟
- بحدا السودان وعلى حدود مصر الجنوبية.
- وأنت مصري ولا سوداني؟
- هيكي وهيكي.. ألا يفصح لوني عن هويتي.
- والصعايدة يشابهونك في اللون.
- احسبني كما تشاء فأنا مواطن عربي أفريقي.
- لا أمزح ولكني أسألك بشكل رسمي.
- لم أرتكب ما يستوجب هذا كله أقوم بعملي وأتعامل مع الجمهور بأدب.
- وين جواز سفرك؟
- هاك جواز سفري.
- وأوراقك الأخرى؟
- فوق في الإدارة.

صعد وجاء معه مصطفى بيت المال وأمرني غاضباً

- نوض (1)

ترددت فأضاف:

- هيا نوض.. يا قواد أنت مصري وتقول لي نوبي وأبصر شنو؟
- على كل حال لست إسرائيلياً.
- إسرائيل لا تحاربنا.

جذبني من الشباك بعنف وقادني معه إلى موقع أمني مجاور ونحن نخترق الزحام إلى الخارج أحاط بنا الأطفال وكانوا

(1) نوض: انهض

يصيحون:

- جاسوس.. جاسوس. وبدأ الضرب ينهال عليّ من الأيدي الصغيرة.

تخلصنا منهم بصعوبة وحبسوني انفرادياً بعد تحقيق قصير. ريثما يصل مدير الجهاز ويتصرف معي حسب نتائج التحقيق.

كان الغرياني قد جاء مسرعاً وحرضهم ضدي بأني كمّت في الجيش وانصرف. ووجدوا المبرر في وشاية الغرياني وتوقيت دخولي إلى البلاد والمهنة المائعة المكتوبة في خانة المهنة بجواز السفر التي في الأساس بالمعاش وبجواره حالياً نقاش وختم شعار الدولة بجواره وتوقيع السفير المصري.

لكن مصطفى بيت المال تصرف بسرعة.. اتصل بابن عمه السفير نوري سفير ليبيا في اليابان والذي كان في أجازة وجاءا معاً رحبوا بالسفير بتقدير بالغ وبحفاوة زائدة. جاءوا بي من محبسي وكان مدير الجهاز يقلب جواز سفري بين يديه ويتساءل بدهشة:

- شني هادا.. بالمعاش وحالياً نقاش.. شعر هادا أم لغز. أنت منو يا شاب؟

- كما تراني.. مصري غلبان.

- وليش بتلف وتدور بالنقيب ميلود وتقول نوبي وأبصر شنو؟

- كنت أمزح معه.

- وهل يجوز المزاح مع ضابط أمن وقت الحرب؟

- ومن أدراني بهويته.

- في كل الأحوال.. ليش تكذب.

- قلت لحضرتك.. مجرد مزاح.
تدخل مصطفى محاولاً تحسين صورتي.
- هادا كاتب وأديب. وهذا يعقد الأمور..
- ولماذا يعمل أديب في مهنة قطع البوليط.
تدخل السفير نوري لأول مرة منذ جاء:
- في حوازتي (1) مهندس زراعي يعمل بستانياً وأحياناً مزارعاً عادياً وفي المستشفى الأميري طبيب يعمل ممرضاً. ظروفهم صعبة يا أخيٍ..
قال بيت المال محاولاً إنقاذي من براثنهم:
- يا جماعة إدريس هادا مملح وصاحب صغار وهو سوداني رغم جواز سفره المصري.. اسألوني عن أهل النوبة؟
توجه رئيس الجهاز للسفير نوري بالسؤال:
- ما رأيك يا أخ نوري؟
- تحروا عنه بدقة واتخذوا معه الإجراء اللازم.
قال مصطفى بيت المال:
- السماح يا جماعة.. ديما السماح.
قال مدير الجهاز:
- القرار عند الأخ ميلود.
استغل النقيب ميلود الموقف ووظّفه لصالحه.. قال:
- يا أخ نوري حضورك عندنا بالدنيا كلها.. من أجل خاطرك سامحت في حقي وحق الثورة.. وكنت أتمنى العمل معك في السفارة كملحق عسكري.. فهل أطمع في مساعدتك.
- بكل سرور.. لكني ألفت نظرك بأن من يعملون معي لا

(1) حوازتي: حديقتي

يتعاطون الخمر.. لو يعجبك هذا الشرط.. قابلني غداً في الخارجية ومعك موافقة جهة العمل.

قال مدير الجهاز:

- الموافقة جاهزة.. هاك

وهكذا نجوت من براثن الأسد.

شمعة وسط الظلام الدامس

دائماً هناك ضوء ضعيف في نهاية نفق مظلم. وقع حادث سعيد ونحن في أوج الأزمة. كان هذا في اليوم الثاني لاندلاع حرب قابيل وهابيل.

طرق بابنا أحدهم ففتحناه بحذر فوجدنا طفلاً يحمل حلة كسكسي ويسأل عن الأستاذ جمعة المدرس الذي يسكن معنا رحب به الأستاذ جمعة وأدخله وشكره على هذه البادرة الطيبة وأمره بالانصراف حتى لا يتعرض لمضايقات الأطفال.. قال التلميذ بعناد شديد:

– سأبقى وأموت معكم يا أستاذ.

– والدك سيقلق.

– هو من أرسلني ريثما يجد لكم مسكناً آمناً.

صار الولد ميلود.. بهجة المسكن في هذه الأيام الكئيبة.. يطارد الأطفال ويقضي حاجاتنا من السوق وينقل لنا صورة كاملة عن فروخ الحجارة ويحكي لنا نوادر الشارع الليبي وحكايات سيدات البيوت المتعصبات قال إن خالته تقول: (الليبية تحلم بحوازة والمصرية تحلم بدجاجة)

ثم يتساءل ببراءة الأطفال:

– أليس عندكم دجاج في مصر؟

وحكى لنا عن سيدة ليبية أمسك باب الحافلة بملائتها فأخذت تصرخ:

– "راجي (1) يا سواق.. راني(2) حاصلة(3) يا كبيدي(4)"

---

(1) راجي : انتظر (2) راني : أنا (3) حاصلة : ممسوكة (4) كبيدي : كبدي

فينتزع البسمات من شفاهنا لأن طريقته في الحكي وتقليده للنساء كان متقناً بدرجة ممثل محترف.

وأصل حكاية تقديسه للأستاذ جمعة أن ميلود كان من الأشقياء ويعتدي بالضرب المبرح على أطفال المدرسة ودائم الرسوب وعندما اعتدى على نجل أحد الضباط طرده الناظر ورفض إعادته للدراسة رغم تدخل وليّ أمره بعدم التكرار لكن الأستاذ تدخل بثقله وأعاده وتعهده بالرعاية والدروس الخصوصية حتى نجح وتفوق ولهذا يعامله ميلود باحترام يفوق كل التصور.

فيقول الأستاذ جمعة متباهياً:

– هؤلاء القوم يؤمنون بأن المعلم كاد أن يكون رسولاً.

في اليوم الثالث لاندلاع الحرب جاء والد ميلود بسيارته وسيارة نصف نقل واستضافنا في شقة يملكها بحي الأندلس الراقي وبها كل مستلزمات الحياة العصرية.. مكيفة وبها ثلاجة مليئة بالخيرات وبعيدة تماماً عن فروخ الحجارة وبدون إيجار لحين انتهاء الغمة وعلمنا أنه كان من الأثرياء وصاحب توكيل سيارات فولفو السويدية ولمّا صدرت قوانين شركاء لا أجراء تآمر عليه ملاحظ العمال، وكان بينهما مشاحنات من قبل لكثرة تغيبه عن العمل فانتهز فرصة صدور القانون وانتزع منه الإدارة في الانتخابات وزيادة في التنكيل أسند إليه مهمة حراسة مقر التوكيل ليلاً.. فانسحب المسكين وقبع في منزله.. وعندما حاول الهرب بأسرته عبر تونس قبضوا عليه عند بوابة الحدود وفرضوا عليه الإقامة الجبرية ولولا أنه ينتمي إلى قبيلة كبيرة قوية لحبسوه أو أعدموه

ولهذا كان يتعاطف معنا ويقال أنه يتفاوض مع العقيد للانتقال إلى مصر مع التنازل عن كل ممتلكاته.. لكن المفاوضات تعثرت.

حكاية العامل الصعيدي
وبدلة المساء والسهرة

أطرف الحوادث التي وقعت في فترة الحرب حكاية عامل الصالة الصعيدي والذي يفجر ضحكاتنا بلهجته الصعيدية وسخريته الدائمة من الليبيين الذين يضايقونه داخل صالة العرض بسبب حزمه في تطبيق قانون منع التدخين ويوماً قبض على شابين في دورة مياه واحدة فأوسعهما ضرباً وكاد يتم ترحيله بسبب ذلك. والحكاية أن الزي الموحد لعمال الصالة والأبواب كان يشبه زي صولات الجيش في طريقة التفصيل والكاب وشارة الكتف وهو أقرب ما يكون لزيّ رجال الإسعاف عندنا وكان يقول متفكهاً عن زي رجال الإسعاف:

- عسكري صعيدي شاف واحد من بتوع الإسعاف. افتكره لواء وضرب له تعظيم سلام.

ومن شدة إعجابه بالزيّ.. التقط لنفسه صورة وهو يضع الكاب تحت إبطه مثل الضباط وبعث بها في رسالة إلى ذويه في الصعيد ولسوء حظه وقعت الرسالة في أيدي رقابة البريد فبحثوا عن صاحب الرسالة وقبضوا عليه واختفى تماماً لمدة شهر. بحثنا عنه في كل الأماكن المحتملة وأبرقنا لأهله في الصعيد نسأل عنه على أساس أنه غادر البلاد متسللاً لسبب نجهله بلا جدوى، وعاد بعد شهر محطم الضلوع والأرجل والتزم الصمت لفترة ولمّا ضيق عليه مصطفى بيت المال الخناق لأنه صاحب العمل ومسئول عنه اعترف بما حدث له ونبهوا عليه بعدم البوح لأحد.

خاف منه مصطفى لأنهم لا يفرجون عن أحد إلا بعد تجنيده وحين حاول ترحيله اعتذرت الجوازات عن منحه تأشيرة الخروج لأنه ممنوع من المغادرة فاستغنوا عن خدماته ومنحوه تنازل وشهادة سير وسلوك.

فقال خالد معلقاً:

- والله إن الصعيدي محظوظ خد تنازل بعلقة.. أنا بقى نفسي يضربوني ليل ونهار وآخد تنازل.

- ومن سمعك

قال خالد بأسى وحزن:

- أنا كنت مدير مالي في مصر.. ومرتب المحاسب العادي بره لا يقل عن خمسمائة دينار.. نفسي في تنازل أنا عارف حظ إيه المهبب اللي وقعني مع العصابة دي..

البيت لساكنه



طرابلس كلها كانت تتحدث همساً عن هذه المأساة والضحية مواطن ليبي بسيط كان يستأجر منزلاً من مواطن ليبي آخر وهما أقارب وبينهما صلة نسب وعلاقة إنسانية استمرت سنوات والمستأجر يداوم على دفع الإيجار قبل نهاية الشهر في عادة لم تنقطع أبداً حتى لو كان متعثراً مالياً ولمّا تأخر مرة حتى منتصف الشهر التالي حسبه المؤجر مريضاً أو مفلساً.. والمؤجر مواطن أمي ويعيش في عزلة عن الجميع واستثمر أمواله الفائضة مثل الجميع في بناء مساكن يؤجرها للأجانب والمغتربين.. لأنهم لا يعرفون البنوك وفوائدها ولم يسمع بالتالي عن قانون البيت لساكنه.

طرق الباب على قريبه فوجده بصحة جيدة فسأله..

- خير وينك (1)
- باهي وأبرز كما ترى.
- والمرة بخير؟
- خير والحمد لله.
- والصغار..؟
- في المدرسة وبصحة جيدة.
- يعني ما في مشكلة
- كل مشاكلنا حلها الأخ العقيد.
- باهي ووين الواحد؟
- واحد شنو؟
- بتاع كل شهر.

(1) وينك : أين أنت

- شني يا حاج.. أنت وين عايش!
- شن في؟
- بالك ما سمعت عن الكتاب الأخضر.
- وشن فيه؟
- إمشي اقرأه وتعالى.

ذهب المؤجر إلى نجله وسأله عن هذا الكتاب وعلاقته بإيجار المسكن. الولد حاول توصيل المعلومة إلى أبيه بهدوء حتى لا يصدم وقال أنه عرف بمضمون القانون وخاف عليه وعلى صحته العليلة فتحرج في إبلاغه.

تساءل المسكين وهو يرتعش:

- شن معناها..
- كل ليبي يستأجر مسكناً من ليبي آخر صار البيت له
- من غير قروش
- ببلاش!

بات المسكين يهذي من شدة وقع الخبر لأنه لم يستوعب المسألة إذ كيف يبني بيتاً من ماله الحر ويستولي عليه آخر بلا مقابل؟ من قال بهذا؟

طرق باب المسجد فقال له الشيخ باستسلام:

- الله غالب.

ذهب شاكياً إلى قسم الشرطة فقال له المأمور:

- إمشي للأخ العقيد.

ذهب باحثاً عن مكان الأخ العقيد فلم يعرف أين يكون ولا كيف يصلون إليه ولما اشتد به الهذيان.. ذهب إلى المستأجر وهو يخفي

مدية حادة بين ملابسه ووقف على بابه بمذلة وسأله:

- أنت مسلم ولا كيف؟
- وحجيت أكثر من مرة.
- وهل يأكل المسلم حق أخيه المسلم.
- يكون كافراً.
- باهي.. أعطني حقي.
- أنت مهبول هذا كلام الأخ العقيد.

استدار وأخرج المدية وطعنه بها طعنة نافذة أردته قتيلاً وجلس يبكي بجوار الجثة.

جاءت الشرطة وقادته إلى "جرجاش" (1) وكان لهذا القانون أثر سلبي مخرب على أحد معارفنا وهو مدرس مصري كان يستأجر الطابق الأرضي من منزل يملكه الغرياني وعلى مدى عشرين عاماً كانت العلاقات بينهما كأفضل ما تكون وعلاقة أسرية بلغت درجة التلاحم.. فقد تولى المدرس رعاية أولاد الغرياني بالدروس الخصوصية وتوصية زملاؤه عليهم حتى أنهوا دراستهم بتفوق وزوجة المدرس هي التي محت أمية حرم الغرياني وعلمتها فنون الطهي المصري والشرقي وعلمتها فنون التزين والتجمل وكيف تستقبل زوجها وهي في كامل زينتها فكف الغرياني عن السفر إلى مالطة وبولاندا مكتفياً بها بعد أن تحولت من بدوية إلى زوجة عصرية راقية.

لكن بعد القانون حدثت اشتباكات لفظية تحولت إلى يدوية وبلاغات ومحاضر للشرطة وكلها كيدية وحفظت، وحاول المدرس

(1) جرجاش : مقر مستشفى الأمراض العقلية

العثور على منزل بديل في ظل أزمة قائمة وفشل. حاول الاستقالة والعودة إلى بلاده لكن الوزارة تمسكت به ولم يكن بوسعه التضحية بمكافأة نهاية الخدمة والتي تزيد عن العشرين عاماً.. ماذا يفعل؟ والغرياني يواصل الضغط حتى يسترد شقته من المحتل الغاصب ولم يجد الغرياني سوى استخدام الأساليب القذرة والتي يجيدها بحرفية عالية.

سرب للمدرس عن طريق الزوجة ما يفيد رغبته في مجلس صلح لتسوية النزاع.. وانعقدت جلسة الصلح في صالون الغرياني وضمت شهوداً من أقاربه وجهاز تسجيل مفتوح تحت المائدة ودار حوار وعتاب وعناق على أكواب الشاي العربي وقال المدرس إنه سيدفع الإيجار مرتين.. مرة للحكومة حسب القانون الجديد ومرة للغرياني صاحب الحق.. أمسك الغرياني بالخيط.

- كيف تدفع لي وللحكومة.
- الله غالب.
- هذا لا يجوز.
- ونعمل إيه للزعيم المجنون؟؟؟

وللمزيد من الاستدراج سأله الغرياني.

- شن رأيك في هذا القانون؟
- قانون ظالم ومن شرّعه حمار.

وبمجرد انتهاء جلسة الصلح اصطحب الغرياني شهوده وجهاز التسجيل وذهب شاكياً للجنة الثورية.. فاختفى المدرس. اتصلنا بكل من نتوسم فيه القدرة على المساعدة وقال الجميع أن الحل في يد الأخ العقيد شخصياً.. سعت الزوجة إليه والتقت به فقال لها

جملة واحدة منهياً المقابلة:

- وشن نديرلك إذا كنتم بتاكلوا في خبزتنا وتسبوا في ملتنا.

فهو لا يتسامح أبداً مع من يسيء إليه وإلى قوانينه وقراراته التي لا نهاية لها.. ينام فيحلم فتصبح أحلامه قرارات.. فهو متقلب وحاد المزاج ولا تعرف له رؤية واضحة للكون والعالم فصديق الأمس هو عدو اليوم.. فهو مثل الطبيعة يمر بالفصول الأربع يخلط بين السياسة والدين والعلم.. دون فرامل وهو من قال يوماً أن مصر شعب بلا حاكم وليبيا حاكم بلا شعب وأيضاً هو القائل بأن الجيش المصري يتكون من نصف مليون جندي وينبغي أن يكون لدينا مليون جندي وهو من تدخل في النص الديني حين قال أن جبريل قال لسيدنا محمد " قل هو الله الأحد " ونحن ينبغي لنا أن نقول الله أحد.. وهو من غيَّر التاريخ الهجري بيوم وفاة الرسول.. وهو.. وهو.. وهو، حكايات لا أول لها ولا آخر وكانت آخر أعماله الجنونية هو ما يتعلق بمقام أحد الأولياء..

الزعيم يأمر بنسف مقام الشيخ



كان في الميدان الواسع الشهير والذي تتم فيه احتفالات الفاتح من سبتمبر وطابور العرض.. وفي وسط الميدان تماماً تقع عمارة هائلة تمت إزالة ما حولها من عمارات وبقت هي كالخازوق تعيق حركة طابور العرض.. لأن تحت العمارة مقام ولِي شهير له عند أهل طرابلس حظوة وشهرة وتأثير نفسي بالغ ولما كلفوا شركة مقاولات مصرية بإزالة العمارة حتى مستوى الأرض والمقاول عربي ومسلم ودرويش مثل كل الذين يتعاملون مع الدين الشعبي الذي يقدس الأولياء.

أزال العمارة وترك المقام كما هو مضحياً بحقوقه المالية حيث أن العقد ينص على الإزالة حتى مستوى الأرض..

وارتفع رصيد الشيخ وبلغ الذروة وسرت شائعة بأن المقاول المصري قد شلت يده ولا تستطيع حتى أكبر آلات الهدم في العالم أن تمس المقام وأن الأخ العقيد نفسه معرض للشلل لو تمادى في تصرفاته.

وإزاء هذه الشائعات لم يكن أمام الزعيم سوى ضرب الخرافة في مقتل فكلف شركة رومانية بنسف المقام.. فنسفته بكمية من الديناميت تكفي لهدم هرم خوفو ورج الدوي العاصمة كلها ولم يبق من المقام ولا أثر.. تحول كله إلى تراب.

وصدرت جريدة الفجر الرسمية بخبر غير موثق بأن الشيخ الولي هو مجرد شاويش تركي.

وكانت هذه واحدة من الصدمات العنيفة التي وجهها الزعيم إلى البسطاء ومشاعرهم الدينية الشعبية المتوارثة وهي الحسنة الوحيدة التي أذكرها للزعيم الثائر.

تمت

سيرة ذاتية

الاسم : إدريس علي محمد حسن

اسم الشهرة : إدريس علي

تاريخ الميلاد : 5/10/1940 بلاد النوبة المصرية قرية " قرشه ".

الجنسية : مصري

رقم التليفون: 35835387

العنوان: 1 شارع محمد عبد اللطيف من ش التكافل - التعاون - الهرم

الدراسة والوظائف :

1- مدرسة البستان الإعدادية سنة 1954

2- معهد القاهرة الديني 1954 - 1957 " الأزهر"

3- تعثر في دراسته في المرحلتين

4- تطوع في القوات المسلحة (قوات حرس الحدود) من 1958 إلى عام 1971

5- خاض حربي اليمن وحرب 1967

6- خرج من الخدمة لعدم اللياقة الطبية

7- مارس العديد من المهن البسيطة في مراحل متعددة من حياته (معمل أدوية / صبي كواء/ صبي بقال / أمن منشئات)

8- أستقر موظفاً في شركة المقالون العرب للاستثمار من 1981 وحتى 2000 (أمين مكتب وشركة)

9- حصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة لمدة ثلاثة سنوات انتهت في 30 / 1 / 2006

10- حصل على ثقافته بالجهود الذاتية وتأثر بعدد من الكتاب "جوركي - ديستو فسكي- تلستوي- هيمن جواي- بيتشارد ريت - جون شتاينيك - نجيب محفوظ - الطيب الصالح - يوسف إدريس"

عضوية النقابات والجمعيات :

1- عضو إتحاد الكتاب.

2- عضو نادي القلم المصري.

3- عضو جمعية الأدباء.

4- عضو نادي القصة.

تاريخ أول نشر

قصته السرير الواحد مجلة صباح الخير يناير 1969.

الجوائز:

1- جائزة أركانسوا الأمريكية عن ترجمة دنقلة للإنجليزية عام 1997 .

2- جائزة أفضل رواية صدرت عام 1998 من معرض القاهرة

الدولي للكتاب 1999 .

3- الجائزة الثانية لمسابقة نجيب محفوظ لرواية العربية من المجلس الأعلى للثقافة عام 2004 .

4- جائزة إتحاد الكتاب عن رواية (مشاهد من قلب الجحيم) عام 2009 .

الأعمال الدرامية المأخوذة من أعماله :

1- مسرحية " نوبة دوت كوم " مركز الهناجر 2003 ، عن ثلاثة روايات " النوبي - دنقلة - اللعب فوق جبال النوبة " .

2- فيلم روائي قصير إنتاج قنوات النيل المتخصصة " اللعب فوق جبال النوبة " 2004 .

الزعيم يحلق شعره

آثر إدريس علي أن يرحل قبل أن يرى بعينيه كيف يرحل الزعماء العرب واحدا تلو الآخر، خاصة (الزعيم الذي يحلق شعره)عمله الفني والروائي الأكثر صخبا وضجيجا في مصر والعالم العربي والذي ظلمته الدوائر والمؤسسات الثقافية الرسمية قبل الخامس والعشرين من يناير 2011وها نحن نعيد طبع الرواية مرة ثانية لترى صفحاتها وسطورها نور الحرية الذي بدأ يشرق على المنطقة العربية بأسرها من المحيط إلى الخليج.... وهو النور الذي كان يبشِّر به إدريس علي بإلقاء الضوء على الإنسان العربي المقهور والمقموع ومعاناته الشديدة ضد الأنظمة العربية التي صادرت حقه في الكتابة والرأي والتعبير.

الجميلي أحمد

www.darwaad.com
waad@darwaad.com
darwaad@hotmail.com

